جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بالمنوفية

آياتُ السكينة في القرآن الكريم

دراسة بلاغية تحليلية

إعداد الدكتور

تامر محمد أحمد حجازي
المدرس بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

مُقَدِّمَةٌ

الحمدُ لله رب العالمين، أنزل القرآن بفضله ورحمته ليكون نورًا وضياءً وهدايةً للعالمين، تسكُنُ إليه النفوسُ، وتطمئنُ به القلوب، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ...﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

والصلاةُ والسلام على خير البرية وسيد البشرية هادي القلوب والأبصار في دياجير الظلمة والضلال، أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وسعِدتْ به البشرية، ووسع الناسَ بخُلقهِ وحِلمه ورحابة صدره، فسكنتْ إليه النفوس، وهَشَّتْ له الأسماع، وعلى آله وصحبه الأخيار الأطهار.

وبعد،،،

فهذا بحثٌ متواضعٌ يدورُ حول ست آياتٍ من كتاب الله (ﷻ) هي آياتُ السكينة.

وأعني بآيات السكينة تلك الآيات المُباركة التي اشتملت على كلمة السكينة مُعرَّفةً بألـ أو بالإضافة أو مُنكَّرة وهي ستُّ آياتٍ يأتي ذكرها.

ومما هو معروفٌ أنَّ القرآن كُلَّه سكينةٌ، وجميعُ آياته تَبُثُّ الطمأنينة في قلب المؤمن، غير أن هذه الآيات – موضوع البحث – وردتْ فيها كلمة «السكينة» لتثبيت المؤمنين في مقامات متباينة شعر فيها المسلمون بالقلق والاضطراب، إبَّانَ حرب النبي (ﷺ) والمؤمنين مع المشركين، كيوم حنين ويوم الهجرة حين كان هو

وصاحبه الصديقُ (ﷺ) في الغار، ويوم صلح الحديبية، وقبل ذلك سكينة بني إسرائيل في حربهم مع أعدائهم.

وكان من أسباب اختياري هذا الموضوع:

أولاً: أن هذه الآيات لم تدرس بلاغيًا وفيها من اللمحات البلاغية ما يخدم البحث البلاغي ويثري مكتبة البلاغة العربية والقرآنية.

ثانيًا: لما وجدت في أساليب نظم هذه الآيات الست من تقاربٍ أو تشابهٍ حينًا وتباعدٍ أو اختلافٍ حينًا آخر مع اختلاف مقاماتها وإن كانت تنتهي جميعًا بتحقيق النصر فور نزول السكينة، فطمعتُ أن تكون هذه الدراسةُ كاشفةً عن بعض أسرار النظم في تلك الآيات.

وقد سرتُ في هذا البحث وفق المنهج التحليلي البلاغي الشامل لكل المسائل البلاغية في كل آية على حدة، مستخلصًا النتائج الخاصة بكل سكينة في نهاية كل آية.

وقد اقتضت خطة البحث أن يخرج في **مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.**

أما **المقدمة** فذكرت فيها أسباب اختياري هذا الموضوع ومنهج البحث وخطته.

وأما **التمهيد** فجاء تحت عنوان: **السكينة في القرآن: مواقعها ومقاماتها.**

ذكرت فيه معنى السكينة وآياتها الست مع الإشارة الموجزة إلى مقام كل آية.

وأما المبحث الأول: فجاء تحت عنوان: السكينة في سورة البقرة، وقد اشتمل على شاهدٍ واحد.

وأما المبحث الثاني: فقد جاء تحت عنوان: السكينة في سورة التوبة، وقد اشتمل على شاهدين.

وأما المبحث الثالث: فقد جاء تحت عنوان: السكينة في سورة الفتح، وقد اشتمل على ثلاثة شواهد.

ثم جاءت **الخاتمة** فذكرت فيها أبرز النتائج العامة المشتركة بين كل آيات السكينة ثم ذيلت البحث **بثبتٍ للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات.**

والله أسألُ أن يجعل هذا البحث في ميزان حسناتي وحسناتٍ والديَّ (رحمهما الله) وأن يرزقنا به جميعًا سكينة القلوب، وإصلاحَ البالِ، وراحة النفوس في الدنيا والآخرة.

وصلى اللهُ وسلَّمَ وباركَ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تمهيد

السكينة في القرآن مواقعها ومقاماتها

المعنى اللغوي:

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة:

«السينُ والكاف والنون أصلٌ واحدٌ مطردٌ يدُلُّ على خلاف الاضطراب والحركة... والسْكَنُ: الأهلُ الذين يسكنون الدار.. ومن الباب: السكينة وهو الوقار».(١)

وقال في لسان العرب: «السكونُ: ضدُّ الحركة، وكل ما هدأ فقد سكن.. والسكنُ: كُلُّ ما سكنت إليه واطمأننت به.

والسكينة: الوداعُ والوقارُ والأمنُ.. وقال بعضهم: السكينة: الرحمة وقيل هي الطمأنينة، وقبل هي النصرُ وقيل هي الوقار وما يسكن به الإنسان»(٢).

ومن خلال ما سبق يتبنُ لنا أن معنى السكينة يدور حول السكون والهدوء والسكوت والطمأنينة والوداعة والوقار والأمن والرحمة والنصر وما يسكن به الإنسانُ.

وهذه المعاني اللُّغويةُ موجودةٌ في الآيات التي سيأتي ذكرُها وهي آياتُ السكينة لتثبيت قلب النبي (ﷺ) ومن معه من المؤمنين في مواقف القلق والحرب والاضطراب.

وفي المعجم الوجيز: «سكنت النفسُ بعد الاضطراب: هدأتْ، وسكن إليه:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس: مادة «سكن» – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الفكر ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور: مادة «سكن» دار الحديث – القاهرة.

استأنسَ به واستراح إليه والسكينةُ: الطمأنينة والاستقرار والرزانةُ والوقار».[1]

فالسكينةُ حالةٌ شعورية أو معنى نفسي يعتري الإنسان فيشعر معه بالرحمة والاطمئنان والاستقرار ويزول معها الخوف والهلعُ والانزعاج.

وشأنُ المؤمن دائماً أن يشعر بالسكينة؛ لأنهُ في معية الله، لا يأسى على مكروهٍ أو لفوتِ محبوبٍ، ولا يفرحُ بدنيا زائلة، فهو راضٍ دائمًا بقضاء الله وقدره خيرًا كان أو شرًا، ومن ثم يعمرُ قلبه بالإيمان والثقة واليقين.

وحين تعتري الإنسانَ لحظةُ ضعفٍ أو هوانٍ فيشعر معها بالخوفِ والاضطرابِ النفسيِّ فإنه يلجأُ إلى القرآن الكريم فهو كتاب السكينة والأمن والأمان حيث يزول معه القلق وتتلاشى المخاوفُ والأحزان.

وللعارفين بالله أحوالٌ خاصةٌ يشعرون معها بالسكينة والرضا والطمأنينة والقرار واليقين ولذا قال بعضهم في تعريف السكينة:

«هي استحكامُ القلب عند جريان حكم الربِّ بنعت الطمأنينة بخمود آثار البشرية بالكلية والرضا بالبادي من الغيب من غير معارضةٍ واختيار».[2]

ولاشك أن هذه حالةٌ عاليةٌ لا يصل إليها إلا من رُزِقَ المعرفة التامة بالله وما تستلزمه من الرضا والصبر واليقين.

ومما هو معروفٌ أن القرآن الكريم كُلَّه سكينةٌ حين يعيش المؤمن مع آياته بتدبر وخشوع، ولا يمكن تخصيص هذه الآيات وحدها ببثِ السكينة، حيث لم يردْ

---

(١) ينظر: المعجم الوجيز: سكن – إصدار مجمع اللغة العربية – القاهرة طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: ٢٩٥/٥ تحقيق: علي عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ.

عن النبي (ﷺ) نصٌّ يخُصُّها غير أنه لا مانع من التبرُّك بها في مقام الخوف والاضطراب.

ومما يُستأنَسُ به في هذا المجال قولُ ابن القيم (رحمه الله) "ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] منزلةُ السكينة، وقد ذكر اللهُ السكينة في كتابه في ستة مواضع: ..... ثم ذكرها (رحمه الله) ثم قال: وكان شيخُ الإسلامِ ابن تيمية (رحمه الله) إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، وسمعتهُ يقول في واقعةٍ عظيمةٍ جَرَتْ له في مرضه، تعجزُ العقولُ عن حملها من مُحاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة، قال: فلما اشتدَّ عليَّ الأمرُ قلت لأقاربي ومن حولي: اقرأوا آياتِ السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال وجلستُ وما بي قلبة ثم قال ابن القيم: «وقد جرَّبْتُ أنا أيضًا قراءَةَ هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرِدُ عليه فرأيتُ له تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته» أ.هـ.[1]

وإنما ذكرتُ هذا الكلام مع طوله لأهميته، لكونه صدر من عالمين كبيرين هما ابن تيمية وابن القيم (رحمهما الله) ولا يعني هذا تخصيص هذه الآيات بغير مُخصِّص، وإنما هو اجتهادٌ منهما فالقرآن كله سكينة.

يُضاف إلى ذلك – وهو الأساس – اشتمال هذه الآيات على كلمة «السكينة» معرفةً بألـ أو مضافةً أو منكرةً، ومجيئها لتجديد ثبات قلب النبي (ﷺ) وتثبيت أصحابه الكرام (رضي الله عنهم) فقد يكون لها أثرٌ عظيمٌ في تثبيت النفس وإذهاب الخوف مع قوة الإيمان واليقين في الله، لاسيما ونحن في عصرٍ كثرت فيه أسباب الخوف والقلق والاضطراب.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبدُ وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: ٥٠٢/٢، ٥٠٣ تحقيق: محمد حامد الفقي – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

*** ولنبدأ بذكر آيات السكينة على الترتيب وهي:**

* **الآية الأولى** وردت في سورة البقرة في مقام الحديث عن جدال الملأ من بني إسرائيل حين أخبرهم نبيهم أن طالوت سيكون ملكًا عليهم فاعترضوا قائلين: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وهي قولــــه تعالــــى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

* **الآية الثانية** وردت في سورة التوبة في مقام الحديث عن غزوة حنين حين أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، والقرآن يصور هذا المشهد النفسي الضائق أجمل تصوير في سورة التوبة يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥ – ٢٦].

* **الآية الثالثة** وردت في سورة التوبة في مقام الحديث عن تأييد الله رسوله

(ﷺ) وصاحبه الصديق (رضي الله عنه) في موقف الهجرة إذ هما في الغار: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

* **الآية الرابعة** وردت في سورة الفتح في مقام الحديث عن صلح الحديبية الذي هزَّ مشاعر المسلمين يقول تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١ – ٤].

* **الآية الخامسة** وردت في سورة الفتح في مقام بيعة الرضوان: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

* **الآية السادسة** وردت في سورة الفتح في مقام كتابة بنود صلح الحديبية: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

المبحث الأول

السكينة في سورة البقرة

وردت آية واحدة من آيات السكينة الست في سورة البقرة وهي قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

*** ولنبدأ أولاً ببيان المقصد العام لسورة البقرة:**

وهو يتمثل في إقامة الدليل على أن الكتاب هُدىً ليتُبع في كل ما قال وأعظم ما يهدي إليه الإيمانُ بالغيب ومجمعُه الإيمانُ بالآخرة، فمداره الإيمانُ بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة فلذلك سميت بها السورة، وقد وصفت فيها القلوب والحجارة بما عم المهتدين بالكتاب والضالين فوصفها بالقسوة الموجبة للشقوة ووصفت الحجارة بالخشية الناشئة في الجملة عن التقوى المانحة للمدد المتعدي نفعه إلى عباد الله وفيها إشارة إلى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل يرشدنا في كل أمرٍ إلى صواب المخرج منه، فمن أعرض خاب، ومن تردد كاد، ومن أجاب اتقى وأجاد(١).

وقد عُنيت السورة عناية خاصة بالحديث عن بني إسرائيل وأعاجيبهم ومراوغتهم لأنبيائهم وجدالهم بالباطل.

وسميت الزهراء لإنارتها طريق الهداية والكفاية في الدنيا والآخرة، ولإيجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب ولم يكن في شك مريب، وليس في الإيمان بالغيب بعد التوحيد بأغلى ولا بأجمع من الإيمان بالآخرة(٢).

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي: ١/٥٥-٥٧ – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

(٢) السابق: ١/٥٧، ٥٨.

*** علاقة آية السكينة بمقصد السورة:**

تُعَدُّ آيةُ السكينة هنا جزءًا من أعجوبة من أعاجيب بني إسرائيل التي عُنيت بها السورة في مقصودها الأعظم لتُبرز لنا ما كان عليه القومُ من جدل عقيم ومراوغة، وكيف انعدم عندهم ملمحُ الإيمان بالغيب الذي عُنيت به السورة الكريمة، فهم لا يُؤمنون إلا بالمحسوسات كالتابوت والبقيَّة وحمل الملائكة له ولذلك قال في تذييلها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وكأن الله (ﷻ) يريد أن يقول لنا: أيُّها المؤمنون آمِنوا بالغيب بما فيه من التوحيد والآخرة بكل ما تشتمل عليه من بعثٍ وحشرٍ وجزاء، الخ ولا يكنْ حالكم في هذا كحال بني إسرائيل الذين لا يؤمنون بالغيب فحل بهم العقاب.

- **قال الإمام البقاعي:**

«ولما كان أغلبهم واقفًا مع المشاهدات غير ثابت القدم في الإيمان بالغيب قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. قال الحرالي: «وقَلَّ ما احتاج أحدٌ في إيمانه إلى آية خارقة إلا كان إيمانه إن آمن غلبةً يخرج عنه بأيسر فتنة، ومن كان إيمانه باستبصار ثبت عليه ولم يحتج إلى آية، فإن كانت الآية كانت له نعمة ولم تكن عليه فتنة ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، فإن الآيات طليعةُ المؤاخذة، والاقتناع بالاعتبار طليعة القبول والثبات – انتهى»[1].

وقد وردت هذه الآية في أطول سورةٍ من سور القرآن الكريم وهي سورة

(١) ينظر: نظم الدرر: ٣/٤١٩، ٤٢٠.

البقرة، وهذه السورةُ المباركةُ بطبيعتها لها أثرٌ بالغٌ في بث السكينة والطمأنينة في أجواء البيت الذي تقرأ فيه، فقد بين النبي (ﷺ) أن الشيطانَ يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة.

فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفرُ من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة».(١)

* مقام الآية وعلاقتها بما قبلها:

وردت آيةُ السكينة هنا في مقام الحديث عن الملإ من بني إسرائيل حين قالوا لنبيهم: «شمويل» أو «شمعون» من بعد موسى (عليه السلام): ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وكان موسى (عليه السلام) قد ترك لهم التابوت فيه بقيةٌ من رضاض الألواح فكانوا إذا قاتلوا أعداءَهم قدموا التابوت بين أيديهم فينتصرون ببركته فغلبوا عليه وسَبَتْهُ منهم العمالقة وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فطلبوا ذلك من نبيهم فأخبرهم أن الله (عز وجل) اصطفى لهم «طالوت» ليكون ملكًا عليهم، ولم يكن من بيت مُلكٍ ولا نبوة فاعترضوا قائلين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وكان لابد من وجود قرينة أو دليل حسي لهم على ملك طالوت عليهم وكانوا في شوقٍ إلى رجوع التابوت الذي سلب منهم وحينئذ أخبرهم نبيهم بآية ملكه:

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووي – ٢٣٢ تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح عويضة – دار المنار.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

- **قال الإمام البقاعي:**

«**ولما كان التقدير:** فأتاهم التابوت على الصفة المذكورة فأطاعوا نبيهم فيه فملكوه وانتدبوا معه فخرج بهم إلى العدو وفصل بالجنود من محل السكن عطف عليه قوله: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] من الفصل وهو انقطاع بعضٍ من كل»[(١)].

* معاني بعض المفردات:

«**ٱلتَّابُوتُ**»: ذكره صاحب الصحاح في مادة «تَوَب» قال: والتوبة: الرجوع من الذنب وكذلك التوبُ مثله، والتابوت، أصله، تابوة؛ مثل: ترقوة؛ فلما سكنت الواو انقلبت هاء التأنيث تاءً[(٢)].

قال في الكشاف: «والتابوتُ: صندوقُ التوراة، وكان موسى (عليه السلام) إذا قاتل قدَّمَهُ فكانت تسْكُنُ نفوسُ بني إسرائيل ولا يفرُّون، ووزنه «فعلوت» من التوْب وهو الرجوع؛ لأنه ظرفٌ توضعُ فيه الأشياءُ وتودَعُهُ فلا يزال يرجع إليه ما

(١) ينظر: نظم الدرر: ٤٢٦/٣.

(٢) ينظر: معجم الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: مادة «تَوَب» تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت – ط. الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

يُخرجُ منه، وصاحبُه يرجِعُ إليه فيما يحتاجُ إليه من مُودَعاته».[١]

«سَكِينَةٌ»: سكن الشيءُ سكونًا: استقرَّ وثبت والسكينة: الوداعُ والوقار.[٢]

وقد ذكر العلماء في معنى السكينة آراء متعددة منها أنا ريحٌ هفَّافةٌ لها وجْهٌ كوجه الإنسان وقال بعضهم هي طِستٌ من ذهبٍ من الجنةِ كان يغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاها الله موسى وفيها وضع الألواح، وقال آخرون: السكينةُ هي روح الله يتكلم إذا اختلفوا في شيءٍ تكلم فأخبرهم ببيان ما يريدون.[٣] وغير ذلك من الآراء الغريبة التي تستند على الإسرائيليات ولا يعضدها سندٌ شرعي أو دليلٌ من الكتاب أو السنة.

وأقربُ الآراء إلى القبول هو ما روي عن عطاء بن أبي رباح قال: السكينةُ ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليه، وفسرها بعضهم تفسيرًا لُغويًا بمعنى الرحمة والوقار.[٤]

قال الإمامُ الشوكانيُّ: «وأقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاءِ الأعلام من جهة اليهود أقمأهم الله فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام الزمخشري: ٢٦٤/١، ٢٦٥ تحقيق: يوسف الحمادي. الناشر مكتبة مصر.

(٢) الصحاح : سكن.

(٣) ينظر في ذلك تفسير ابن كثير: ٦٦٦/١ تحقيق : سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، وتفسير الطبري: ٣٢٨/٥، ٣٢٩ جامع البيان في تفسير القرآن تحقيق : أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ط أولى هـ١٤٢٠-٢٠٠٠م وغيرهما من التفاسير.

(٤) السابق والصفحة.

بالمسلمين (ﷺ) والتشكيك عليهم وانظر إلى جعلهم لها تارةً حيواناً وتارةً جماداً وتارةً شيئاً لا يعقل... ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مرويًا عن النبي (ﷺ) ولا رأيًا رآه قائله فهم أجلُّ قدرًا من التفسير بالرأي وبما لا مجال للاجتهاد فيه، إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة، فقد جعل اللهُ عنها سعةً ولو ثبت لنا في السكينة تفسيرٌ عن النبي (ﷺ) لوجب علينا المصيرُ إليه والقول به، ولكنه لم يثبتْ من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت عن بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما في «صحيح مسلم» عن البراء قال: كان رجلٌ يقرأُ سورة الكهف وعنده فرسٌ مربوطٌ فتغشتْهُ سحابةٌ فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي (ﷺ) فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن» وليس في هذا إلا أن هذه التي سماها رسول الله (ﷺ) سكينة سحابة دارت على ذلك القارئ، فالله أعلم».[1]

وهذا هو الكلام الذي تميل إليه النفسُ ويقبله العقل ولا يتعارض عرفًا ولا شرعًا ولا عقلًا ولا نقلًا وهو الأولى بالقبول، ولو كانت السكينةُ تقبل التفسير بشيءٍ من هذا لوصفت به لكنها جاءت منكرةً «سكينةٌ».

«**وَبَقِيَّةٌ**»: وقد اختلِفَ في البقية، فقيل: هي عصا موسى، ورُضاض الألواح وقبل غير ذلك. قيل والمراد بآل موسى وهارون هما أنفسهما أي مما ترك هارون وموسى ولفظ «آل» مقحمةٌ لتفخيم شأنهما، وقيل: المراد الأنبياء من بني يعقوب لأنهما من ذرية يعقوب فسائر قرابته ومن تناسل منه آلٌ لهما.[2]

---

(١) ينظر فتح القدير للشوكاني: ٢٣٧/١، ٢٣٨ مكتبة الرشد – الرياض ط السادسة ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م

(٢) السابق: ٢٣٥/١.

فإذا كانت السكينةُ من الله فإن البقية من آثار الأنبياء وكلاهما يشعر بالأمن ويبث الطمأنينة في حنايا النفس، ويجعلها تشعر بالاستقرار والأمان.

وقد ذكر ابنُ جرير (رحمه الله) أقوال المفسرين في البقية ثم قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: جائزٌ أن تكون تلك البقيةُ العصا وكسر الألواح والتوراة أو بعضها والنعلين والثياب والجهاد في سبيل الله وجائزٌ أن تكونَ بعض ذلك، وذلك أمرٌ لا يُدْرَكُ علمُه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يُدْرَكُ علمُ ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم، ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا، وإذا كان كذلك فغيرُ جائزٍ فيه تصويبُ قولٍ وتضعيف آخر غيره إذا كان جائزًا فيه ما قلنا من القول».(١)

وأيًا ما كان الأمرُ فالتابوتُ كانت فيه أشياءُ فاضلةٌ من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوسُ تسْكُنُ إلى ذلك وتأنسُ به وتقوى.(٢)

«**ءَالُ**»: آل يَؤُول: أي رجع.. وآلُ الرجل: أهلُ بيته من هذا لأنه إليه مآلهم وإليهم مآله.. وآلُ الرجل: شخصه من هذا أيضًا، وكذلك آلُ كل شيءٍ وذلك أنهم يعبرون عنه بآله وهم عشيرته يقولون: آلُ أبي بكرٍ وهم يريدون أبا بكرٍ.(٣)

* التحليل البلاغي:

ابتدأت آيةُ السكينة هنا ببيان إخبار نبي الله «شمويل» (عليه السلام) لبني إسرائيل بآية مُلكِ طالوت عليهم وهي إتيانُ التابوت.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري: ٣٣٤/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي: ٢٤٩/٣ تحقيق: أحمد البردوي وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية – القاهرة ط ثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس مادة «أَوَلَ».

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨] والواو هنا عاطفة على ما سبق من القصة حتى يكتمل الحوار بين القوم ونبيهم فهي عاطفة على قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وإنما قال لهم هذا القول ليقيم لهم الدليل الحسي على ملكية طالوت عليهم حتى يسلموا له بالملك ويذعنوا لأمر الله.

وقد جاءت الجملة موصولة بسابقتها بالواو وهي قوله سبحانه في الآية السابقة عليها: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة: ٢٤٧] والوصل هنا للتوسط بين الكمالين كمال الانقطاع وكمال الاتصال، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى[1]، وقد أفاد هنا تتابع السرد القصصي للأحداث، وتكرار القول والموعظة من قبل نبيهم حيث واجهوه بالرفض والجدل والمراء حين قالوا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ووراء الوصل بيانٌ لما طبع عليه بنو إسرائيل من عنادٍ وعصيانٍ ومراوغةٍ وتمردٍ حتى مع أنبياء الله.

وبلاغة الحوار هنا تتمثل في حرص نبي بني إسرائيل على إقناعهم بالحجة الحسية والدليل والبرهان العملي حتى تسكن قلوبهم وتتيقن أن الملك ليس مرتبطًا بسعة المال بل هو مرتهن باصطفاء الله للإنسان والزيادة في الجسم والعلم وقوة العقل وأنه فوق ذلك كله قدر من أقدار الله ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني: ١٩٢ تحقيق الدكتور: عبد القادر حسين – الناشر مكتبة الآداب ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

فلم يشأ هذا النبي الكريم (عليه السلام) أن يلزم الملأ من بني إسرائيل بهذا الأمر قسرًا أو قهرًا بأسلوب الأمر أو النهي المباشر وإنما عدل عنه إلى أسلوب الحوار ليستميل قلوبهم إلى التسليم والإذعان عن قناعة ويقين.

وأعاد لفظ القول: «وَقَالَ» ليبين أنه خاطبهم بذلك خطابًا صريحًا ليقيم عليهم الحجة والبرهان، وجاء متعلق القول وهو الجار والمجرور « لَهُمْ» مكررًا كذلك مع القول هنا حتى يشير إلى اختصاصهم بهذا القول لمبالغتهم في المراوغة والإنكار.

و«نَبِيُّهُمْ » هو شمويلُ أو شمعونُ (عليه السلام) وهو بمعنى: سمع الله.(١)

وقد وضع المظهَر هنا موضع المضمر، إذ كان يمكن أن يضمر الفاعل مستترًا في الفعل «وَقَالَ» حيث سبق ذكره مظهرًا في قوله سبحانه في الآية السابقة على تلك الآية: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فكان يمكن أن يقال: وقال لهم إن آية ملكه استغناء بذكره هناك ولكنه آثر الإتيان بالاسم الظاهر مكان الضمير.

ووضعُ المظهرِ موضع الضميرِ له إيحاءاتٌ بلاغية متعددة لاسيما إذا اقتضاه المقام – كما هنا – حيث يظهر «وحيُ الكلمةِ وعملُها بما يثيره لفظها من شئونٍ في النفسِ لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فالضمير لا يعملُ في العقول عمل الإفصاح والتكشيف، فإذا كان يعطي إشارة ذهنية إلى العائد عليه هذه الإشارةُ تُحضِره في النفس، إلا أن قدرًا كبيرًا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظًا بها ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه، لأنها تتولد حين يقرع اللفظُ السمعَ بجرسه

(١) تفسير ابن كثير: ٦٦٥/١.

وارتباطاته المختلفة حد الاختلاف والتي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف».[1]

ويبدو الإفصاحُ والتكشيفُ هنا في إعادة لفظ «نَبِيُّهُمْ» تقريعًا لهم وتوبيخًا، فالآمِرُ نبيٌّ من قبل الله ومع ذلك يراوغون ويجادلون في وقاحةٍ صريحةٍ تتنافى مع الأدبِ في خطابِ الأنبياء، فالإظهارُ هنا في موضع الإضمار أفصح عن معنى التوبيخ والتقريع لهؤلاءِ القوم.

كما نلمح في تعريف المسند إليه «نَبِيُّهُمْ» بالإضافة إلى ضميرهم إشارةً إلى تشريفهم واختصاصهم بهذا الفضل حيث خصهم الله بنبيٍّ لهم من عنده دون غيرهم فكان الأولى بهم أن يُسارعوا إلى امتثال أمره ونهيه؛ لأنه أمرُ الله ونهيُ الله.

ثم جاء مضمون القول: «إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ» والجملةُ في محل نصب مقول القول، والآيةُ: هي العلامة والأمارة والمعجزة[2] أي قال لهم نبيُّهم إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرُدَّ اللهُ عليكم التابوت الذي كان أُخِذَ منكم.[3]

وقد جاء الخبرُ هنا مُؤكدًا بإنَّ واسمية الجملة، ليزيل ترددهم ويستأصل شكَّهم في أهلية طالوت للملكية عليهم.

وإنما اختار كلمة «ءَايَةَ» ومن معانيها المعجزة، لأن مجيءَ التابوت على

---

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: د/ محمد محمد أبو موسى: ٢٤٧، ٢٤٨ مكتبة وهبة – الطبعة الخامسة – ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٢) المعجم الوجيز: ٣٢ [آية].

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٦٦٦/١

تلك الهيئة تحمله الملائكةُ أمرٌ خارقٌ للعادة ساقه اللهُ لبني إسرائيل تأكيدًا على صدق نبيهم وحملًا لهم على الإذعان لمُلْكِ طالوت عليهم.

والمُلْكُ هو السلطانُ والمراد به إمارتُه عليهم وصيرورتُه ملكًا عليهم، وإنما اختار لفظ « **ٱلْمُلْكُ** » مشاكلةً لقولهم السابق: «**ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا**» وقوله: «**إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**» وقولهم: «**أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ**» فخاطبهم بما يماثل طلبهم، ليقيم عليهم الحجة حين تظهر الآية في إذعانهم له بالملك.

وفي إضافة المُلكِ إلى ضميره « **مُلْكِهِۦٓ** » تخصيصٌ له بهذا المُلْكِ حتى لا يتطلع أحدُهم إلى مشاركته فيه.

ثم جاء خبرُ «**إِنَّ**» وهو قوله سبحانه: «**أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ**» فالجملة في تأويلِ مصدر منسبك من «أَن» والفعل المضارع تقديره: إتيانُ في محل رفع خبر «إِنَّ».

وقد جاء المسندُ إليه «**ٱلتَّابُوتُ**» مُعرَّفًا بأل العهدية وفي هذا إشارةٌ إلى أن التابوت كان معهودًا عندهم متعارفًا لديهم.

قال ابن جرير أبو جعفر الطبري: «كان التابوتُ عند عدوٍ لبني إسرائيل كان سَلَبَهُموه، وذلك أنَّ الله تعالى ذكره قال مخبرًا عن نبيه في ذلك الزمان قوله لقومه من بني إسرائيل: «**إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ**» والألفُ واللامُ لا تدخلان في مثل هذا من الأسماء إلا في معروفٍ عند المتخاطبين به، وقد عرفه المخبرُ والمخْبرَ، فقد عُلِمَ بذلك أنَّ معنى الكلام: إنَّ آيةَ ملكه أن يأتيكم التابوت

الذي قد عرفتموه الذي كنتم تستنصرون به فيه سكينةٌ من ربكم ولو كان ذلك تابوتًا من التوابيت غير معلومٍ عندهم قدرُه ومبلغٌ نفعه قبل ذلك لقيلَ: إن آيــة ملكــه أن يأتيكم تابوتٌ فيه سكينة من ربكم».[١]

ولما كان التابوتُ بتلك القيمة عندهم وقد أخذ منهم حين عصوا الله كان ذلــك بمثابة العقاب الأليم لهم حيث كان يشتمل على مقدساتٍ من آثارِ أنبيائهم فعوقبــوا بعصيانهم باستيلاء عدوهم عليهم.

يقول الإمامُ القرطبي: «وهذا أدلُّ دليلٍ على أنَّ العصيانَ سببُ الخُذلانِ وهــذا بيِّن».[٢]

وقد أسندت الآية الكريمة الإتيــان إلــى التــابوت: «**أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ**» والتابوتُ يُؤتى به ولا يأتي بدليل قوله بعد ذلك: «**تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**» وذلــك علــى سبيل المجاز العقلي والعلاقةُ هي المفعولية.

وهي تكون بإسناد ما بنى للفاعل إلى المفعول به الحقيقي[٣] مبالغةً في قدســية التابوت.

قال ابنُ الجوزي في زاد المسير في علم التفسير: «وهذا من مجاز الكــلام؛ لأن التابوت يُؤتى به ولا يأتي ومثلُه ﴿**فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ**﴾ [محمد: ٢١] وإنما جاز مثل هذا لزوال اللبس فيه».[٤]

وقد أكد المجاز كذلك صاحبُ مفاتيح الغيب يقول: «والإتيان على هذا مجــازٌ

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير أبي جعفر الطبري: ٣٢٥/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٧/٣.

(٣) المجاز العقلي بين عبد القاهر والمتأخرين أ.د/ الشحات محمد أبو ستيت: ١٧.

(٤) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي: ٢٥٢/١ المكتبة الشاملة. قائمة التفاسير.

لأنهُ أتى به ولم يأتِ هو فنُسِبَ إليه توسُّعًا كما يقال ربحت الدراهم وخسرت التجارة».[١]

وقد أبرز الشيخ الشعراويُّ (رحمه الله) فائدة الإسناد المجازي فقال: «ونلحظُ أنه سبحانه قد نسب الإتيان إلى التابوت فقد أتاهم وهم جالسون تحمله الملائكة والملائكة كائناتٌ غير مرئية فلن يراهم أحدٌ وإنما سيُري التابوت آتيًا إليهم، ولهذا أسند المجيء إليه، وهذا المشهدُ يخلعُ القلوب ويجعلُ أصحاب أشد القلوب قساوة يخرون سجدًا ويقولون: «طالوتُ: أنت الملك ولن نختلف عليك».[٢]

وقد اشتمل هذا التابوتُ على شيئين: أحدهما معنويٌّ، والآخرُ حسيٌّ، أما المعنويُّ فهو السكينة، وأما الحسيُّ فهو البقية الباقية مما ترك آلُ موسى وآل هارون وذلك قوله سبحانه: «**فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ**».

والجملةُ مكونةٌ من مبتدأ مؤخر وخبر مقدم حيث إن «فِيهِ» خبر مقدم، و«**سَكِينَةٌ**» مبتدأ مؤخر، والجملةُ في محل نصب حال من «**ٱلتَّابُوتُ**».

والتعبيرُ بحرف الظرفية « **فِيهِ**» يشير إلى احتواء التابوت على تلك السكينة حقيقةً، وتنكيرُ المسند إليه «**سَكِينَةٌ**» يفيدُ التعظيم إذ هي مستمدة «**مِّن رَّبِّكُمْ**» فليست أي سكينة، وإنما نزلت فيه من قبل «**رَّبِّكُمْ**» هكذا بلفظ الربوبية بما فيها من معاني: الملك والاستحقاق للعبادة والسيادة والتدبير والتربية

(١) مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي: ٥٠٦/٦ – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) ينظر تفسير الشيخ الشعراوي: ٦٦٣/١ المكتبة الشاملة – قائمة التفسير.

والإنعام،[1] ليشير بذلك إلى رحمته (ﷻ) بهم مع مبارزتهم إياه بالمعصية، ثم ليذكرهم بوجوب طاعة هذا الرب، وفي إضافة «رب» إلى ضميرهم تشريفٌ لهم وتعظيم حيث توجه إليهم بكاف الخطاب فكانوا أهلًا لخطابه سبحانه ووراءه تحفيزٌ لهم على الإذعان والتسليم لأمر الله.

وجملة الحال: «**فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**» تبثُ الطمأنينةَ في حنايا القومِ، وتزرعُ فيهم الثقة في ملكية طالوت عليهم وأن هذا هو عين التابوت الذي فقدوه.

والسكينةُ هنا هي الجانب المعنوي وهو الجزء الأول الموجود في التابوت، أما الشق الحسيُّ الآخر فهو: «**وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ**».

و«**وَبَقِيَّةٌ**» معطوفٌ على « **سَكِينَةٌ**» وتنكيرها يفيد التقليل، أي بقيةٌ باقية فهي وإن كانت قليلةً من آثارِ موسى وهارون (عليهما السلام) إلا أنها مباركةٌ كثيرةُ النفع.

و «مِنْ» في قوله: «**مِّمَّا تَرَكَ**» جارَّةٌ تفيد التبعيض أي من بعض تركتهم أو من بعض الذي تركوه و«ما» موصولةٌ، وجملة الصلة هي: «**تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ**».

وهي كناية عن بعض آثار موسى وهارون (عليهما السلام)، لأن لفظ الآلِ مُقحمٌ – كما سبق – لتفخيم شأنهما، أو أن المراد: الأنبياءُ من بني يعقوب، لأنهما من ذرية يعقوب، فسائر قرابته وما تناسل منه آلٌ لهما.[2]

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور: ربب.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٢٣٥/١.

والمهم أنها آثارٌ طيبةٌ وبقيةٌ مباركة من آثار موسى وهارون (عليهما السلام) أو من آثار سائر أنبياء بني إسرائيل، وهي آثارٌ عظيمةٌ لها أثرٌ بيِّنٌ في تثبيت النفوس وتسكينها عند الخوف والقلق وفي مقام الاضطراب.

ثم جاءت جملة الحال: «تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ» وهي حالٌ من التابوت، أي حالة كونه محمولًا للملائكة، والحملُ هنا حقيقيٌ، والملائكةُ مخلوقاتٌ نورانيةٌ ليس لها جسمٌ ماديٌّ يُدْرَكُ بالحواس الإنسانية ولهم قدرةٌ على أن يتمثلوا بصورة البشر بإذن الله تعالى.(١)

فجائزٌ أن يكونوا حملوه في صورةٍ بشريةٍ أو حملوه فوضعوه بين أظهرهم دون أن يروْهم، والمهم أن حمل الملائكة له تعظيمٌ وتقديسٌ لهذا التابوت بأمر الله تعالى، وفيه تأنيسٌ لبني إسرائيل وسكْبٌ للسكينةِ في قلوبهم.

ثم ختمت الآيةُ بقوله سبحانه: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

والمعنى: أي قال لهم نبيُّهم شمويلُ (عليه السلام) قال لبني إسرائيل إن في مجيء التابوت على تلك الصفة لعلامة لكم ودلالةً على صدقي «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» أي إن كنتم مصدقيَّ عند مجيء الآية؛ لأنهم قالوا قبل ذلك: «أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا»؟.(٢)

وقد أكد الجملة بإنَّ واسمية الجملة ولام التأكيد؛ وذلك لأنهم في مقام إنكار

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة تأليف د/ أحمد فريد: ١٤٧ مكتبة فياض.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للإمام الطبري: ٣٣٧/٥.

لملكية طالوت عليهم، فترادفت تلك المؤكداتُ لتستأصل من قلوبهم الإنكار، وتدفع عنهم الشك، ليحل محله الإقرار والتسليم والإذعان.

وهذا الخبرُ غريبٌ مدهشٌ وهو أن يجيءَ التابوتُ على تلك الهيئة تحمله الملائكة ولذلك أثار في نفس المخاطب سؤالًا فحواه: ولمَ جيء بالتابوت على تلك الهيئة العجيبة؟ فجاء قوله: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» بمنزلة الجواب عن هذا السؤال المقدر في النفس ومن ثم فصلت الجملة عن قوله تعالى: « إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ» وسرُّ الفصلِ هو شبه كمال الاتصال.

قال الخطيبُ: «وقال السكاكيُّ: وتنزيلُ السؤالِ بالفحوى منزلة الواقع لا يُصارُ إليه إلاَّ لجهاتٍ لطيفة: إمَّا لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامُك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرِطُ في هذا السلك».(١)

فالغرضُ البلاغيُّ من الفصلِ هنا هو تنبيه بني إسرائيل إلى موقع هذا السؤال وأهميته ولفت نظرهم إلى ضرورة المسارعة بالإقرار والإذعان لطالوت بالملك استجابة لأمر نبيهم بعد أن ظهرت لهم الآيات القاطعة على صدق نبيهم، ليقيم عليهم الحجة البالغة، ويقطع عليهم سبيل المراوغة والإنكار.

وقد جاء اسم الإشارة « ذَٰلِكَ» بلام البُعد ليشير إلى تعظيم تلك المعجزة الخارقة وتهويل أمرها وهو مجيءُ التابوت مشتملًا على تلك المقدسات بتلك الهيئة، ودخل عليه حرف الظرفية « فِي» ليبين انبثاق المعجزة من داخل التابوت

(١) الإيضاح: ١٨٩، وانظر مفتاح العلوم للسكاكي: ١٤٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩٠م.

وخروجها من شيءٍ حسيٍّ أمامهم شاهدوه بأمِ أعينهم ليقطع عليهم الحجج ويرد الأعذار.

وقد جاء المسند إليه «لَآيَةً» منكرًا وهو اسم إنَّ مؤخر ليفيد تعظيم تلك الآية، والإشارة إلى أنها علامةٌ وأمارةٌ بينةٌ لا مجال معها لجَحْدٍ أو إنكار.

وجاء الجار والمجرور «لَّكُمْ» ليفيد اختصاصهم بتلك الآية دون سواهم، لأنهم دأبوا على عدم الإيمان إلا بالمحسوسات.

وفي إعادة الآية «لَآيَةً» ردٌّ للعجُز على الصدر حيث ذُكرت في صدر الآية الكريمة في قوله تعالى: «إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ» قال أبو هلال العسكري في بيان رد الأعجاز على الصدور وبلاغتها: «فأولُ ما ينبغي أن تعلمه إنك إذا قدمت ألفاظًا تقتضي جوابًا فالمرُضي أن تأتي بتلك الألفاظ في الجواب ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] وهذا يدُلك على أنَّ لرد الأعجاز على الصدور موقعًا جليلًا من البلاغة، ومنه ما يكون في حشو الكلام في فاصلته، كقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٢١].[1]

وقد أفاد هنا التأكيد على ظهور الدليل المادي المحسوس المشاهد أمام أعينهم قطعًا لأعذارهم، وحتى يسجل عليهم مرة ثانية مشاهدتهم للآية، حتى يسُدَّ عليه

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري: ٤٢٩، ٤٣٠ تحقيق الدكتور/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

منافذ المراوغة والخداع والتلبيس.

ثم ختمت الآية الكريمة بهذه الجملة الشرطية «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »ووراءها كشفٌ صريحٌ لما تنطوي عليه نفوسُهم من كذب وخداع وتضليل.

وقد جاءت كثيرٌ من المحاورات مع اليهود في كتاب الله (ﷻ) تختتم فيها الآيات بقوله سبحانه: «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »وهي تبرز مواقف اليهود وتفضح دخائلهم وتكشف أكاذيبهم وكأنَّ الجملة الشرطية في كل محاورة تتحداهم وتبطل إيمانهم بطلانًا مسوقًا بالأدلة ومدعمًا بالحجج.(١)

وجوابُ الشرطِ محذوفٌ تقديره: «إن كنتم مؤمنين فتدبروا الأمر واعتبروا وامتثلوا أمر ربكم وآياته».(٢)

والأصْلُ في « إن »الشرطية عدم الجزم بوقوع معناها؛ ولذا كان موقعها الحكم النادر أي القليل الوقوع لكونه غير مقطوع به.(٣)

وحينئذٍ تُشتمُّ منها رائحةُ الشكِّ في إيمانهم، وهو شكٌّ لم يقع قطعًا من قِبل الله (ﷻ) تعالى الله عن ذلك وإنما وقع من نبيهم لما ظهر أمامه من قرائن تكذيبهم وعنادهم.

والإيمانُ هنا يحمل على الإيمان بالله أو التصديق أعني تصديق نبيهم أي إن كنتم مصدقيَّ فيما أقوله لكم.

---

(١) الجملة الشرطية الواقعة في خواتيم الآيات القرآنية ومقاماتها البلاغية أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني: ١٢٨، ١٣٣، ١٣٤ الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه د/ محي الدين الدرويش: ٣٦٩/١ دار الإرشاد – حمص – سوريا – ط رابعة ١٩٩٤م.

(٣) الجملة الشرطية: ٣٩.

ويمكن أن نخلص من خلال التحليل البلاغي للآية الكريمة وهي الآيةُ الأولى من آيات السكينة إلى ما يأتي:

* **أولًا:** جاءت هذه الآية في مقام الحديث عن بني إسرائيل وما حدث لهم من خوفٍ وانهزامٍ نفسي وضعفٍ عن مواجهة الأعداء بسبب ضياع بعض مقدساتهم ممثلًا في التابوت فأشاعت السكينة والاطمئنان في قلوبهم وملأت قلوبهم بالثقة واليقين في نصر الله.

* **ثانيًا:** حملت آية السكينة هنا من خلال تجربة بني إسرائيل تحذيرًا للمسلمين إن نكصوا عن الجهاد أو تخاذلوا عن الدفاع عن الدين أو انغمسوا في ذل المعاصي والذنوب أو فرطوا في مقدساتهم أن يتعرضوا لغضب الله وعقابه بتمكين عدوهم من رقابهم وإذلالهم ونزول العذاب عليهم في الدنيا والآخرة.

* **ثالثًا:** أظهرت الآيةُ الكريمة مدى الجدل واللجاج والعناد والمراوغة التي طبعت عليها بنو إسرائيل في تاريخهم الطويل مع أنبيائهم، مما يقطع الطماعية في استقامتهم مع من سواهم من سائر الناس.

* **رابعًا:** إذا كان الله تعالى قد جعل سكينة بني إسرائيل في التابوت وهو عرضةٌ لسطو الأعداء عليه، فإنه قد جعل سكينة هذه الأمة في قلوبهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤]. وقلب المؤمن بيد الله «وشتان بين أمةٍ سكينتهم فيما للأعداء عليه تسلُّط، وأمةٍ سكينتهم فيما ليس لمخلوقٍ عليه سلطان».[1]

(١) ينظر لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك القشيري: ٢٣٨/١ المكتبة الشاملة. قائمة التفاسير.

المبحث الثاني

السكينة في سورة التوبة

وردت في سورة التوبة آيتان من آيات السكينة

* **الأولى** أنزلت على النبي (ﷺ) وأصحابه في غزوة حُنين وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[التوبة:٢٥-٢٦]

* **والثانية** أنزلت على النبي (ﷺ) وصاحبه أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وهما في غار ثور متخفيين عن أعين الكفار وهم يجدون في البحث عنهما في كل مكان وذلك في هجرته (ﷺ) هو وصاحبه إلى المدينة المنورة وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

* المقصد العام لسورة التوبة:

هذه السورة بدأت بالبراءة؛ لأن فيها نبذًا لعهود المشركين ولم تكتب بينها وبين سورة الأنفال «بسم الله الرحمن الرحيم» لمناسبتهما على تقدير كونهما سورة واحدة، حيث نزلت كلتاهما في القتال، ولأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءَة نبذ

العهود، ولأن اسم الله سلامٌ وأمانٌ فلا يكتب في النبذ والمحاربة.

وقد فضح اللهُ (ﷻ) فيها المنافقين وشرَّد بهم وكشف أسرارهم وأعلن ضمائرهم وأحقادهم على رسول الله (ﷺ) والمسلمين فسميت من أجل ذلك الفاضحة والمبعثرة والمخزية، وسميت بالتوبة، لأن الله (ﷻ) تاب فيها على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا، وعلى كل من علم منه صدق النية في الرجوع إلى الله.

فمقصدُ السورة هو معاداة المعرضين عن الله من المشركين والمنافقين وموالاة من أقبل على الله، وأدلُّ ما فيها على الإبلاغ في هذا المقصد قصة المخلفين.

ولذلك هجرهم رسول الله (ﷺ) وأمر المسلمين بهجرهم وأعرض عنهم بكل اعتبار حتى بالكلام، فذلك معنى تسميتها بالتوبة، وهو يدل على البراءة؛ لأن البراءة منهم بهجرانهم حتى رد السلام كان سبب التوبة فهو من إطلاق المسبب على السبب، وتسميتها «براءة» واضحٌ أيضًا فيما ذكر من مقصودها.

وسميت كذلك سورة العذاب لأنها ما تركت أحدًا إلا نالت منه وهي من آخر ما نزل في المدينة.(١)

* علاقة آيتي السكينة بالمقصد العام للسورة:

- **أما الآية الأولى** وهي الخاصة بغزوة حنين في قوله سبحانه:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ

(١) ينظر: نظم الدرر: ٨/٣٥٠ – ٣٦٠ وينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ويسمى: المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى للإمام البقاعي: ٢/١٥١-١٦١ مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥ – ٢٦].

ففيها إشارةٌ إلى أن من اغتر بكثرته ضل ولم تغن عنه شيئًا، فإذا عاد إلى الله وتوكل عليه وأقبل عليه نصره الله «فقد تبين أن المنصور من نصره الله قليلًا كان أو كثيرًا، وأن القلة والكثرة والقوة والضعف بالنسبة إلى قدرته سواءٌ فلا تغتروا بما ألزمكم من النعم فإنه قادرٌ على نزعها، لا يستحق أحدٌ عليه شيئًا ولا يقدر أحدٌ على ردِّ قضائه، وفي ذلك إعلامٌ بأنه لا يرتد بعد إيمانه إلا من كان عريقًا في الكفر، وفيه أبلغ تهديد لأنه إذا عذب من أوجد الكفر وقتًا ما فكيف بمن رسخ فيه»[1].

لقد اهتزت أركان المسلمين بكلمة قالها أحدهم وهي: «لن نغلب اليوم عن قلة» فوكلوا إليها، ثم سرعان ما ثبتهم الله لما علمه فيهم من الخير المتمكن في قلوبهم فنزلت عليهم السكينة وأيدهم بنصره وجنوده، فآية السكينة هنا تسير في خطٍ متوازٍ مع مقصدِ السورة الأعظم وهو معاداة المعرضين عن الله وموالاة من أقبل على الله.

– **<u>وأما الآية الثانية</u>** وهي الخاصة بمقام هجرة النبي (ﷺ) وصاحبه في الغار وهي قوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ

(١) ينظر: نظم الدرر: ٨/٤٢٦، ٤٢٧

كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

فلا يمكن أن نغفل سبب نزول الآيات بداية من قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

ولما كان الأمرُ بالقتالِ في سورة التوبة من مقصد السورة الأعظم جاء الأمر هنا بالنفرة للجهاد في سبيل الله نصرة لله ولرسوله فعاتبهم على التباطؤ والتثاقل ثم شدَّد عليهم الأمر فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩].

ثم بين أنهم إن تقاعسوا عن نصر رسوله (ﷺ) فسينصره الله كما نصره في الغار هو وصاحبه وثبت صاحبه الصديق (رضي الله عنه) بإنزال السكينة والمشركون حول الغار ففيها إشارةٌ إلى أن الولاء لله إنما يكون مع نصر الله ورسوله وأن البراء يكون مع الضعف والتخاذل والقعود عن الجهاد.

* العلاقة بين آيتي السكينة في سورة التوبة:

يتضح لنا من خلال ما سبق أن الآية الأولى وهي الخاصة بغزوة حنين جاءت إثر هزيمة وكانت في موقف غزوة من غزوات النبي (ﷺ)، فثبت الله بها من ثبت من المؤمنين ورسول الله لم تزل معه سكينة لا تفارقه أبدًا ولذلك نادى المسلمين وأمر عمه العباس بالنداء في الناس.

بينما السكينة الثانية وهي التي نزلت على النبي وصاحبه في غار ثور في

وقت الهجرة جاءت لنزع قلق ولذلك قال: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا».

فالأولى نزلت في قوة الإسلام واجتماع المسلمين، والثانية نزلت في بداية الإسلام وهو إذ ذاك ضعيف لم يتمكن أمرُه والنبي وصاحبه وحيدين في الغار، بخلاف حنين حيث كان النبي (ﷺ) في اثني عشر ألفاً من أصحابه.

وكأن كلتا الآيتين تُلمحُ إلى أن تأييد الله ونصره لا غنى عنه للقوي والضعيف على حدٍ سواء، لا فرق بين قليل أو كثير، الكل يحتاج لسند الله وعونه على كل حال، فإذا لم يكن العون من الله للعبد فلن يجدي معه مالٌ ولا كثرةٌ ولا عددٌ ولا عُدةٌ ولا قوةٌ.

السكينة الأولى في سورة التوبة

يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥ – ٢٦].

* **علاقة الآية بما قبلها**:

سبقت آيةُ حنين بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي هذا إشارةٌ إلى أن من آثر حب شيءٍ من ذلك على حبه تعالى كان مارقًا من دينه راجعًا إلى دين من آثره وكان التقدير: «فيصيبكم بقارعةٍ لا تطيقونها ولا تهتدون إلى دفعها».

ولما كان في بعض النفوس من الغرور بالكثرة ما يكسبها سكرة تغفلها عن بعض مواقع القدرة ساق قصة حنين دليلًا على ذلك الذي أبهمه من التهديد «فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ» جوابًا لسائل كأنه قال: «ما ذاك الأمر الذي يتربص إتيانه ويخشى من عظيم شأنه؟»؛ فقيل: الذل والهوان والافتقار والانكسار. فكأنه قيل: وكيف يكون ذلك؟ فقيل: بأن يسلط القديرُ عليكم وإن كنتم كثيرًا أقوياء

غيركم وإن كانوا قليلًا ضعفاء.[1]

* سبب نزول الآيات:

لما أتمَّ الله (ﷻ) نعمته على نبيه (ﷺ) بفتح مكة في العام الثامن من الهجرة، أحست قبائل هوازن وثقيف ومن تابعهم بالخطر المحدق بهم فكمنوا للنبي (ﷺ) عند رجوعه من مكة بوادي أوطاس ومعهم نساؤهم وذراريهم وأموالهم بقيادة مالك بن عوف النصري، وفيهم دريدُ بن الصِّمة وهو شيخٌ كبيرٌ أعمى فقال: ما لي أسمعُ رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبُكاء الصبي وثُغاء الشاءِ؟ قالوا: ساق مالكُ بن عوف مع الناس نساءَهم وأموالهم وأبناءَهم، فدعا مالكًا وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردتُ أن أجعل خلفَ كل رجلٍ أهله وماله ليقاتل عنهم فقال: راعي ضأنٍ والله، وهل يرُدُّ المنهزمَ شيءٌ. إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فُضحتَ في أهلك ومالك وأشار عليه بردهم إلى ممتنع بلادهم لكنه رفض واتَّهمه بالكبر والخرف.

وعلم النبي (ﷺ) بمسير العدو، وكان قد غادر مكة في اثنى عشر ألفًا من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة وألفانِ من الطلقاء، وأتاه الخبرُ بسوقهم نساءَهم ونعمهم وشاءَهم فتبسَّم رسول الله (ﷺ) وقال: «تلك غنيمةُ المسلمين غدًا إن شاء الله».

وعبَّأَ رسول الله (ﷺ) الجيش وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس، واهتز المسلمون طربًا بكثرتهم وعدتهم وعتادهم حتى قال بعضهم: لنْ نُغْلب اليوم عن قلة فشق ذلك على رسول الله (ﷺ).

وكان العدو قد كمن للمسلمين في مضايق الوادي وهم لا يدرون وقد نزلوا في عماية الصبح فبيناهم ينحطون إذْ أُمطِرت عليهم النبالُ، وإذا كتائب العدو قد شدت

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٨/٤٢٠-٤٢٣.

عليهم شدة رجلٍ واحدٍ، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوي أحدٌ على أحدٍ وكانت هزيمة منكرة حتى قال أبو سفيان بن حرب وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال آخرون: ألا بَطُل السحرُ اليوم.

وثبت النبي (ﷺ) وهو يقول: «هلموا إليَّ أيها الناس أنا رسول الله، أنا محمدٌ بن عبد الله» ولم يبق معه في موقفه إلا عددٌ قليل من المهاجرين والأنصار تسعةٌ أو اثنا عشر أو ثمانون أو مائة على الأكثر على أقدامهم وحينئذٍ ظهرت شجاعة النبي (ﷺ) فقد طفق يركض بغلته قِبل الكفار وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابنُ عبد المطلب».

وأبو سفيان بن الحارث آخِذٌ بلجام بغلته والعباسُ بركابه يكُفَّانها لا تُسْرع ثم نزل (ﷺ) فاستنصر ربه قائلًا: «اللهم أنزل نصرك».

وأمر رسول الله (ﷺ) عمه العباس – وكان جهِير الصوت. أن ينادي الصحابة، فنادى بأعلى صوته: أين أصحابُ السَّمُرَة: قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفةُ البقر على أولادها فقالوا: لبيك لبيك، فتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة، وتجالد الفريقان مجالدةً شديدةً، ونظر رسول الله (ﷺ) إلى ساحة القتال وقد استحرَّ واحتدم فقال: «الآن حمِيَ الوطيسُ» ثم أخذ رسول الله (ﷺ) قبضةً من تراب الأرض فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة، فلم يزل حدُّهم كليلًا وأمرُهم مدبرًا.

وما هي إلا ساعاتٌ قلائل – بعد رمي القبضة – حتى انهزم العدو هزيمة منكرةً، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مالٍ وسلاحٍ وظُعُن، وفرَّ فلول المشركين إلى الطائف ونخلة وأوطاس وغنم المسلمون منهم من السبي ستة آلاف رأس، ومن الإبل أربعة وعشرين ألفًا، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة.

وفي هذه الغزوة أنزل الله (ﷻ) قوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[التوبة: ٢٥ – ٢٦].(١)

وهنا يظهر التناسب التام بين آية السكينة وبين مقامِ الغرور الذي وقع لبعضهم وموقف الغدر من الأعداء الذي أدى إلى الهزيمة ومن ثم تفرقت جموع المسلمين على الرغم من كثرتهم، لأنهم وُكِلُوا إلى كلمتهم «لن نُغلب اليوم عن قلة» والقرآن يصور ذلك بقوله سبحانه: «**إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا** »وكانت النتيجة أن الأرضَ على رُحبها وسعتها ضاقت عليهم وولوا مدبرين، لكن تلك الهزيمة لم تستغرق سوى لحظاتٍ ونزلت السكينة على قلب رسول الله (ﷺ) وعلى المؤمنين وثبتهم الله (ﷻ) بالملائكة، وقتل المشركين على أيديهم، وأنعم عليهم بالغنائم الوفيرة والمال الكثير.

* التحليل البلاغي للآية:

إن الآية السابقة على هذه الآية لا تنفصل عنها معنويًا وهي قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ

(١) ينظر في ذلك: الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري: ٣٥٦ – ٣٥٩ – دار البيان العربي – الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥ م وتفسير القرطبي: ٩٩/٨ – ١٠١ وتفسير ابن كثير ١٢٥/٤-١٢٩.

فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

فالآيةُ هنا تبدأ بذكر إنعام الله على المؤمنين بالنصر في مواطن كثيرة ومنها هذا الموطن «غزوة حنين» لكنها تمهد لنصر حنين بتصوير المشهد النفسي المؤلم الذي نزل بالمسلمين في بداية الغزوة حين ولوا مدبرين لا يلوي أحدٌ على أحدٍ، وكأنَّ هذا كان عقابًا من الله (ﷻ) حين اعتمدوا على أنفسهم وكثرتهم «إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا».

وقد صور الله (ﷻ) تلك الحالة النفسية البائسة من الكرب والهلع الذي ألمَّ بالمسلمين بهذه الاستعارة التمثيلية في قوله سبحانه: «وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ».

حيث صور هيأتهم وحالهم لما اشتدَّ عليهم البأسُ واضطربوا ولم يهتدوا لدفع العدو عنهم بحال من يرى الأرض الواسعة ضيقة، وكأنه في مكانٍ ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه».[1]

وهي تعكسُ اختلال قوة التفكير لديهم بسبب ما هم فيه من شدةٍ وكرب عظيم ولذلك لاذوا بالفرار في أول الأمر: «ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ».

ثم تأتي السكينة ومعها النصر المبين « ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى

(١) التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور: ١٥٦/١٠، ١٥٧ الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ »؛ وقد عطفت الآيةُ على سابقتها بحرف العطف « ثُمَّ»، وهي حرف عطف يُشرِكُ في الحكم ويفيد الترتيب بمهلةٍ[1]، وذلك يُشعر بتراخي الزمن وثقلـه على قلوبهم وإن كانت المدة بسيطة جدًا منذ الهلع إلى نزول السكينة فهي لحظـاتٌ لكنها في غاية الثقل على النفس.

وقد يُلمحُ من « ثُمَّ» التراخي الرُّتبي، تعظيمًا لنزول السكينة في الرتبة علـى النصر ذاته قال في التحرير والتنوير: «و « ثُمَّ» دالةٌّ على التراخي الرُّتبى فـإن نزول السكينة ونزول الملائكة أعظمُ من النصر الأول يوم حنين على أن التراخي الزمني مُرادٌ تنزيلاً لعظم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فـإن أزمـات الشدة تُخيَّلُ طويلةً وإن قصُرتْ».[2]

والسكينةُ: هي السكونُ والهدوء والرحمة والوداعة والطمأنينة[3] والإنزالُ هنا معنويٌّ وهو كناية عن تثبيت القلوب من الخوف والاضـطراب، والتعبيـر بلفـظ الإنزال يشير إلى سكب السكينة في القلوب الحائرة وبث الطمأنينـة والأمـن فـي حناياها.

وتعليق إنزالها بالله وإضافتها إلى ضميره «سَكِينَتَهُۥ» تنويهٌ بـشأنها وبركتهـا، وإشارةٌ إلى أنها سكينةٌ خارقةٌ للعادة ليست لها أسبابٌ ومقـدماتٌ ظـاهرة، وإنمـا حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه أنفًا وكرامةً لنبيه (ﷺ) وإجابـة لندائـه النـاس

(١) الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي: ٤٢٦ تحقيق: الـدكتور/ فخـر الدين قباوة أ. محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولـى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/١٥٧، ١٥٨.

(٣) لسان العرب: سكن.

ولذلك قدم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين[1].

فتعريف المسند إليه بالعلمية بذكر اسم الجلالة فاعلًا للإنزال «أَنزَلَ ٱللَّهُ» إضافة إلى إضافة السكينة إلى ضميره سبحانه «سَكِينَتَهُۥ» يشيران إلى تعظيم هذه السكينة، وأنها سكينةٌ خاصة بالرسول (ﷺ) والمؤمنين، وعظمتها تتناسب مع عظم الموقف وخطورة المقام لتقوى بذلك على استئصال نوازع الخوف وبوادر الفزع التي ألمت بالمسلمين حينذاك، ولذلك تلاحقت عندئذٍ كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى واستعادوا أماكنهم وسرعان ما حَلَّقَت بُشريات النصر في سماء الزمان.

وتقديم الرسول (ﷺ) على المؤمنين؛ لأنه الأصلُ وهو مصدرُ تجميع كلمة المؤمنين فهو (ﷺ) الذي نادى وأمر عمه بالنداء، فاجتمع الناسُ بعد فرارهم وعطفوا على النداء كعطفة البقر على أولادها – كما يقول العباسُ (رضي الله عنه) قائلين: لبيك لبيك.

وإضافة الرسول (ﷺ) إلى ضمير الله «رَسُولِهِۦ» تثبيتٌ آخر للمؤمنين ورافدٌ من روافد السكينة، وعاملٌ قويٌّ من عوامل التثبيت في وقت الشدة، فهم وإن كانوا مؤمنين بأنه رسول الله لاشك في ذلك إلا أن الإضافة في هذا المقام الذي ذهب بعقولهم وشتت تفكيرهم تشعرهم بالأمن والأمان وبالتأييد الإلهي من قبل الله ثم إنها علامة من علامات صدقه (ﷺ) وتثبيت المسلمين على الإيمان.

وإعادة حرف الجر «عَلَىٰ» بعد حرف العطف تنبيهٌ على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني، للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين، فسكينة الرسول (ﷺ) سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات

(١) التحرير والتنوير: ١٥٨/١٠.

وشجاعة بعد الجزعِ والخوف[1].

وإنما اختص الله المؤمنين دون أن يقول مثلًا «وعليكم» ليبين أن المستحقين لتلك السكينة هم المؤمنون الثابتون على الإيمان دون سواهم من المنافقين أو المترددين المتربصين الهزيمة بالله ورسوله ليميز اللهُ الخبيث من الطيب، وكأنها علامةٌ لاختبار المرءِ إيمانه من عدمه.

ثم بين الله (ﷻ) أن عوامل النصر لم تكن بإنزال السكينة فقط وإنما كانت بإنزال الملائكة كذلك يقول سبحانه: «وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا»، والجنود هنا هم الملائكة، قيل، كانوا خمسة آلاف وقيل أكثر من ذلك، وحدَّثَ رجلٌ كان في المشركين يوم حنين قال: «لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله (ﷺ) لم يقوموا لنا حلبَ شاةٍ، قال، فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في أدبارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله (ﷺ) فتلقانا عنده رجالٌ بيضٌ حسان الوجوه فقالوا لنا: شاهت الوجوه! ارجعوا، قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها».[2]

والعطف بالواو يشير إلى اختلاف العاملين جوهرًا ومعنىً فالسكينةُ معنوية، والجنود حسية، وإن كانوا لم يروْها هم لكن المشركين لاشك أنهم رأوْها، ولاشك أن الجمع بين العوامل المعنوية والحسية في تحقيق النصر يجعل له مذاقًا خاصًا حيث يُشعر المؤمنين بالسند والعون ومعية الله.

وتنكير «جُنُودًا» يشير إلى كثرتها وعظمتها وفرط قوتها، وقد وصفهم بقوله: «لَّمْ تَرَوْهَا» ليكون أدخل في الشعور بسعادة النصر والتثبيت من قبل الله.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥٨/١٠.

(٢) جامع البيان للطبري: ١٨٨/١٤.

ثم أسعدهم بخبرٍ ثالثٍ وهو قوله سبحانه: «وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري[1] وتضعيف الفعل يشير إلى مدى التنكيل والألم الذي وقع بهم حين فقدوا نساءَهم وذراريهم وأموالهم ونفوسهم، ووصفهم بالكفر صلة للاسم الموصول «ٱلَّذِينَ» ليبزر استحقاقهم هذا العذاب جزاءً وفاقًا لأعمالهم الخبيثة ومكرهم وحقدهم وكيدهم للإسلام والمسلمين، ولفظ الجمع يوحي باتفاقهم جميعًا واشتراكهم دون استثناء مُتمالئين على النبي (ﷺ) والمسلمين.

والوصل بالواو بين هذه الجمل للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت جميعها في الخبرية ثم إن مجيء الواو خاصة في العطف بينها يشير إلى الجمع بين هذه المُفرِحات المتعددة للمؤمنين: إنزال السكينة، وإنزال الجنود، وتعذيب الكافرين، في وقتٍ واحدٍ.

ثم بين استحقاق الكافرين هذا الجزاء الدنيويَّ فضلًا عن العذاب الأخروي فقال: «وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ».

وتعريف المسند إليه باسم الإشارة «وَذَٰلِكَ» يشير إلى العذاب المفهوم من «وَعَذَّبَ» أي وذلك العذابُ جزاءُ الكافرين، وفيه تهويلٌ وتفخيمٌ لما حل بالمشركين من عذاب دنيوي وتفظيع لما ينتظرهم من عذاب أخروي.

ولامُ البعدِ تشير إلى بلوغه غاية الألم والتنكيل، ولفظ «جَزَآءُ» مُشعِرٌ بالعدالة الإلهية في تلقين هؤلاء الكفار ذلك الدرس المؤلم جزاءً وفاقًا لمكرهم وكيدهم وحقدهم واعتدائهم، فالجزاءُ من جنس العمل.

---

(١) الكشاف للزمخشري: ٢/٢٨٩.

وإضافته إلى «ٱلْكَٰفِرِينَ» ليشير إلى سبب استحقاقهم هذا الجزاء وهو الكفر.

وتذييل الآية بهذا الختام «وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ» يشير إلى أن تلك النهاية هي نهاية الكفر في كل زمان ومكان مهما اشتد وقوى واحتدم، فنهايته لا محالة إلى الانتقام العادل والهزيمة النكراء، وفيه إلماحٌ للمؤمنين بالسكينة والهدوء وتطمينٌ لقلوبهم على مر الزمان بقدوم نصر الله.

وقد جاءت الآيةُ التالية لآية السكينة لتبين أن مَرَدَّ الكفر والإيمان داخلٌ في مشيئة الله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٢٧] فقد جاء منهم أناسٌ إلى رسول الله (ﷺ) تائبين مقلعين ودخلوا في الإسلام وتاب الله عليهم.

ويمكن من خلال التحليل البلاغي لهذه الآية أن نستخلص ما يأتي:

* **أولًا:** بيان الفرق بين السكينة التي أنزلها الله على رسوله (ﷺ) والسكينة التي أنزلها الله على المؤمنين، ذلك أن السكينة التي أنزلها الله على رسوله سكينة اطمئنان على المسلمين وثقة بالنصر بينما سكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف، وبهذا يعلم أن رسول الله (ﷺ) لم يعترِ قلبه خوف ولا اضطراب بدليل ثباته في ساحة المعركة وقوله: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

* **ثانيًا:** إذا كانت السكينة مع بني إسرائيل قد جاءت منكرة هكذا: «سَكِينَةٌ» فإنها هنا مع المؤمنين من أمة الحبيب (ﷺ) قد جاءت مُضافة إلى ضمير الله (ﷻ) «سَكِينَتَهُۥ» وفي هذا تعظيمٌ وتفخيم لسكينة هذه الأمة، لاسيما وأنها هناك لم توجه لبني إسرائيل خاصة، فلم يقل مثلًا: فيه سكينةٌ لكم أو لبني إسرائيل،

بينما جاءت هنا خاصة بالنبي (ﷺ) وبـــالمؤمنين « ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » وفي هذا بيانٌ للفارق المعنوي بين السكينتين لتفاوت ما بـــين الفريقين في المكانة والمقام.

* **ثالثًا:** كانت سكينة بني إسرائيل سلاحًا للنصر المستقبلي، بينما كانت سكينة هذه الأمة سلاحًا ينزل في ساعة الصفر – كما يقولون – وفرقٌ بين سلاح تـــستعد به للقاء عدوٍ مُرتقب، وسلاح ينزل عليك وأنت في ساحة المعركة تتلهف إلى مـــن يأخذ بيديك إلى بر الأمان.

السكينة الثانية في سورة التوبة

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

*** سبب نزول الآية:**

هذه هي آيةُ السكينة الثالثة، وقد وقعت في سورة «براءة»، وهي الآيةُ الثانية من هذه السورة من آيات السكينة، حيث وردت الأولى في غزوة حنين وهي السابقة، ووردت هذه في مقام الحديث عن الهجرة، عقب عودة النبي (ﷺ) من غزوة تبوك حين استنفر الناس لهذه الغزوة لضرب الروم في عُقرِ دارهم لما علم بعزمهم على استئصال المسلمين وكان الناسُ في وقت الحر وطيب الثمار وقلة الزاد والراحلة فتقاعس المنافقون واثاقلوا عن الخروج معرسول الله (ﷺ) فأنزل الله سورة براءة وفضح فيها المنافين، وبعثر أسرارهم وشرَّد بهم وأخزاهم وتاب على المؤمنين الصادقين.

*** علاقة الآية بما قبلها:**

سبقت آيةُ السكينة هنا «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ....» بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]. حيث بينت هذه الآية العذاب الحاسم والأليم للمتخلفين المتقاعسين عن النفرة للجهاد مع رسول الله (ﷺ)، وأكدت

على أن نصر الله نبيه (ﷺ) ليس مرتبطًا بنفرتهم من عدمها، فهو ناصره لا محالة، وإذا كان قد نصره منفردًا ثاني اثنين إذ هما في الغار في وقت الهجرة وقد تآلبت عليه جموع المشركين وأنزل السكينة على قلبه وثبت صاحبه، فلاشك أنه قادرٌ على نصره الآن ومعه جيشٌ عظيم من الصحابة المخلصين ومن ثم فهو في غنىً عن نفرتكم ونصركم لأنه دائمًا في معية الله.

*** التحليلُ البلاغيُّ للآية:**

بدأت آية السكينة الثالثة وهي الثانية في سورة التوبة بقوله سبحانه: «**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ...» وقد جاءت مفصولة عن قوله سبحانه في الآية السابقة عليها: «**إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ...» وسرُّ الفصل هو شبهُ كمال الاتصال.

حيث أثارت الآيةُ السابقة سؤالًا في النفس فحواه: كيف يقع النصر مع عدم نفيرهم معه ونصرهم إياه؟ فجاء قوله: «**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ**» بمثابة الجواب عن هذا السؤال ففصلت عنها كما يفصل الجواب عن السؤال.

قال في التحرير والتنوير: [«**إِلَّا تَنصُرُوهُ** ...» استئنافٌ بيانيٌّ لقوله: «**وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**»؛ لأن نفي أن يكون قعودهم عن النفير مُضِرًا بالله ورسوله، يُثير في نفس السامع سؤالًا عن حصول النصر بدون نصير، فبين أن الله ينصرُه كما نصره حين كان ثانيَ اثنين لا جيش معه، فالذي نصره حين كان ثاني اثنين، قادرٌ على نصره وهو في جيش عظيم، فتبين أن

تقدير قعودهم عن النفير لا يُضرُّ الله شيئًا].[1]

فالفصلُ هنا يشير إلى بُعْدِ الشُّقَّةِ بين نصر الله تعالى رسوله (ﷺ) وبين عدم نفير هؤلاء المنافقين للجهاد، فليس النصر مرتبطًا بنفيرهم أو قعودهم، كما أنه لا يحتاج لمساعدةٍ أو مكاثرةٍ من البشر وإنما يكون بتأييد الله وتوفيقه وعونه ورعايته.

وقد بدأت الجملة بأسلوب الشرط المنفي: « **إِلَّا** » وأصلها: «إنْ لا تنصروه»، والجملةُ لا محل لها من الإعراب لأنها استئنافيةٌ، وجملة « **فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ** » لا محل لها تعليليَّةٌ لجملة الجواب المحذوفة والتقديرُ: «إلا تنصروه فسوف ينصره الله لأن الله قد نصرهُ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين».[2]

والشرطُ بإن مع ما فيها من معنى الشك وعدم الجزم أو القطع بوقوع الشرط وهو شكٌ من المخاطبين أنفسهم يوحي بضعف همتهم عن نصر رسول الله (ﷺ) وتقاعسهم عن النفير معه وهذا ما حدث في غزوة تبوك.

وحذف جواب الشرط «فسينصره الله» مع ذكر الدليل عليه «**فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ** » يشير إلى التيقن من النصر مع ذكر الدليل عليه وهو دليلٌ واقعيٌ حسيٌّ ملموسٌ شاهدوه بأم أعينهم في هجرته.(ﷺ)

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/٢٠٠، ٢٠١.

(٢) ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود بن عبد الرحيم صافي: ١٠/٣٤٣ دار الرشيد – دمشق ط رابعة ١٤١٨هـ.

وقد دخلت «لا» النافيةُ على الفعل المضارع وهي حينئذٍ تخلصه للاستقبال[1]، وفي هذا بيانٌ لتعهد الله (ﷻ) بنصر نبيه حالًا ومستقبلًا كما نصره ماضيًا.

ومضارعيةُ الفعل: «**تَنصُرُوهُ**» تؤكد هذا المعنى وتشير إلى أنه مهما استمر عدم نصركم: فلن يخذلَه الله، وواو الجماعة تشير إلى اجتماع المنافقين واتفاقهم على القعودِ والتثاقلِ عن الجهاد وبث الوهن والخوف بين الناس.

والضمير يعودُ على النبي (ﷺ) وإن لم يتقدم له ذِكْرٌ لأنه واضحٌ من المقام ومفهومٌ من السياق.

وقد جاءت الفاءُ الرابطة للشرط بدليل الجواب وهو قوله: «**فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ**» لتشير إلى سرعة إحاطة الله به وعنايته وحفظه له حيث لم تتخلَّ عن معنى التعقيب، وأكد ذلك بحرف التحقيق «قد» لينزع من قلوبهم بوادر الأمل في هزيمة رسول الله (ﷺ) إن هم تخلوا عنه وقعدوا عن الجهاد.

وجاء المسند إليه معرفًا باسم الجلالة « **ٱللَّهُ** » وفي ذلك بيانٌ لأهمية هذا النصر وعظمته وخلوصه من المن والأذى مع ما فيه من معنى العصمة والحفظ والتأييد.

والتعبير بالماضي «**نَصَرَهُ**» يشير إلى نصر الله (ﷻ) لنبيه في الهجرة، ويحقق هذا النصر ويجليه للعيون.

و«**إِذْ**» ظرفٌ للزمان الماضي مبني على السكون في محل نصب متعلق بـ

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٩٦.

«نَصَرَهُ »[1] أي نصره الله وقت إخراج الذين كفروا وقد أبدلت منها «إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ » و«إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ» وذلك على نية تكرار العامل أي ونصره الله كذلك إذ هما في الغار، ونصره الله كذلك إذ يقول لصاحبه لا تحزن.. وفي هذا إبرازٌ لتحقيق نصر الله له في كل المواطن.

فتكرارُ الظرف «إِذْ» في المواضع الثلاثة مبدلًا بعضها من بعضٍ في غاية البلاغة، به يتجلى تأييده تعالى رسوله أكمل التجلي، فهو يذكرهم بوقت خروجه (ﷺ) مهاجرًا مع صاحبه لما كان من قريش من شدة الضغط والاضطهاد، ويتلوه تذكيرهم بإيوائه مع صاحبه إلى الغار لا يملكان من أسباب الدفاع عن أنفسهما شيئًا، ثم يخص بالذكر وقت قوله لصاحبه: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا »ليبرز إيمانه الأكمل بمعية الله (ﷻ) الخاصة برسوله (ﷺ).[2]

ووراء ذلك التكرار للظرف « إِذْ » تعريضٌ بالمنافقين أن الله تعالى ورسوله غنيان عن نفيرهم ونصرهم، بل هو سبحانه وحده القادرُ على أن يسخر لرسوله (ﷺ) من الجنود والعباد ما ينصره به ويحفظه ويرعاه في كل زمانٍ ومكان.

وقد أُضيفت «إِذْ » إلى جملة «أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا »ليبين تحقق النصر وقت اشتداد الأزمة وتآلب المشركين على رسول الله.

وإسنادُ الإخراج إلى «ٱلَّذِينَ كَفَرُوا » إسنادٌ عقليٌّ علاقته السببية، فهم لم يُخرجوه حقيقة بل كانوا سببًا في إخراجه بإيذائهم له هو وأصحابه الكرام وإنما

(١) الجدول في إعراب القرآن الكريم: ٣٤١/١٠.

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: ٣٧١/١٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م

أخرجه الله.

فمعنى إخراج الذين كفروا إياه فعلهم به ما يُؤدي إلى الخروج فنسب الإخراج إليهم مجازًا كما نسب في قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيَ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣][1].

وقد عرف المسند إليه بالاسم الموصول « الَّذِينَ » ليشير إلى اجتماعهم على هذا الأمر المنكر وتوافقهم جميعًا على معاداة رسول الله (ﷺ)، وجاءت جملة الصلة بلفظ الكفر «الَّذِينَ كَفَرُوا »والكفرُ من معانيه: جحدُ النعمة وسترها [2]، فالكافر جاحدٌ بأنعم الله، وقد كان أهل مكة في رغدٍ من العيش ونعيمٍ يصور ذلك قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٥٧] فأنعم الله عليهم بالأمن والرزق الطيب والقيادة للعرب وأتم نعمته عليهم بخروج رسول من بينهم فكانوا أحق وأولى بأن يحافظوا على تلك النعمة ولكنهم كفروها وجحدوها فكان هذا أبرز أوصافهم إضافةً إلى كفرهم بالله.

ومن معاني الكفر كذلك: ستر الفطرة[3] لأن الله تعالى فطر النفوس على توحيده والإيمان بكونه الرب يذكرنا بذلك العهد الذي أخذ على بني آدم: ﴿أَلَسْتُ

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ٤٢١/٥ تحقيق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – ١٤٢٠ هـ.

(٢) مختار القاموس للطاهر أحمد الزواوي: ك – ف – ر الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ١٣٨٨هـ – ١٩٧٩م.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس مادة «كَفَرَ».

بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾[الأعراف: ١٧٢].

ثم جاءت تلك الحال «ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ» والمقصود بهما رسول الله (ﷺ) وصاحبه الصديق (ﷺ)[1] وهي حال منصوبة من الضمير الغائب في: «أَخۡرَجَهُ»[2] لتبين أن نصر الله كان حليفهُ في الهجرة ولم يكن له جيشٌ ولا عُدةٌ ولا عتاد، بل كان هو وصاحبه مجردين من السلاح والمال، ومع ذلك نصره الله فكيف إذا كان معه جيشٌ وعزوة من المؤمنين الصادقين، وفي هذا بيانٌ عظيم لمعية الله (ﷻ) للضعفاء ونصره لهم إذا توكلوا على الله واحتسبوا أمرهم لله.

ثم جاءت « إِذۡ » الثانية وهي مبدلةٌ مما قبلها – كما سبق – «إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ» أي ونصره حيث كانا في غار ثور، فالتعريفُ في « ٱلۡغَارِ » للعهد، أي لغارٍ يعلمه المخاطبون وهو الذي اختفى فيه النبي (ﷺ) وصاحبه وهو غار جبل ثور خارج مكة إلى جنوبيها بينه وبين مكة نحو خمسة أميال في طريق جبلي[3].

وقد عرف المسند إليه « هُمَا » بضمير الغائب لينص على انفرادهما داخل تلك المغارة أو الثقب المهول في جبل ثور، وما أجمل أن يجمع بين الصديق (ﷺ) وبين رسول الله (ﷺ) في ضمير واحد هكذا «هُمَا»، وظرفيةُ « فِي » توحي بالرعب والهول الذي يحتويه هذا المكان الموحش.

---

(١) ينظر الكشاف: ٣٠٠/٢.

(٢) الجدول في إعراب القرآن الكريم: ٣٤١/١٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٠٣/١٠.

ثم جاءت « إِذْ » الثالثة: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » لتبين الموطن الثالث من مواطن النصر والتثبيت.

لقد لجأ الرسول وصاحبه الصديقُ إلى غارِ ثورٍ ثلاثة أيام ليرجع الطلبُ الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر (ﷺ) يجزعُ أن يطلع عليهم أحدٌ فيخلص إلى الرسول (ﷺ) منهم أذىً، ويقول: يا رسول الله: إن تُصَبْ اليومَ ذهب دينُ الله فجعل النبي (ﷺ) يُسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر: ما ظنُك باثنين الله ثالثهما» ويرد الصديق: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا فيثبته النبي (ﷺ): «يا أبا بكر: ما ظنُك باثنين الله ثالثهما، لا تحزنْ إن الله معنا».[1]

وقد دلت مضارعية الفعل «يقول» على استحضار الصورة لما قاله رسول الله (ﷺ) وما أجمل أن يوصفَ الصديقُ (ﷺ) بصحبته لرسول الله (ﷺ): «لِصَاحِبِهِ»، فقد استحق هذا الوصف عن جدارة، فهو الذي قال الله فيه: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

وهو الذي قال الله فيه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٧ – ٢١].

وهو الذي قال فيه رسول الله (ﷺ): «لو وضع إيمان الأمة في كفة وإيمان أبي

(١) ينظر تفسير بن كثير: ٣٥٨/٢ – والكشاف للزمخشري: ٣٠٠/٢.

بكرٍ في كفة لرجحت كفة أبي بكر».[1]

ولذلك استحق (ﷺ) الوصف بالصحبة، وشُرِّفَ بإضافته إليه (ﷺ) ولذلك قال العلماءُ: «من أنكر صحبة أبي بكر (ﷺ) فقد كفر لإنكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة».[2]

ثم جاءت جملة القول وهي في محل نصب مقول القول: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» وهو أسلوب نهي يقصد منه التثبيت وبث الطمأنينة والأمن في قلب الصديق (ﷺ) والنهيُ عن الحزن فيه استئصالٌ لكل أسباب القلق والخوف والاضطراب.

ثم علل النهي عن الحزن بقوله: «**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**» وأكد على معية الله لهما بإن واسمية الجملة لينتزع من قلب صاحبه مظاهر الخوف ومشاعر الحزن، وهي معيةٌ خاصةٌ تقتضي الشعور بالأمن والأمان والإحساس بالنصر والتأييد، وتتصاغر أمامها تحالفات الظالمين مهما بلغت قوتها.

ولذلك كانت النتيجةُ «**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**» هكذا بفاء التعقيب التي تشعر بعدم وجود مهلةٍ أو فارقٍ زمني ليحيطهم بالأمن والأمان.

والسكينةُ هي اطمئنان النفس عند الأحوال المخوفة مشتقةٌ من السكون، والتأييد: التقوية والنصر مشتقٌ من اسم اليد، والجنودُ: الملائكةُ الذين ألقوا الحيرة في نفوس المشركين، فصرفوهم عن استقصاء البحث عن النبي (ﷺ) وإكثار

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٢٧٦/٣، ٥٣١/٤.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٣٠٠/٢.

الطلب وراءه والترصد له في الطرق المؤدية والسبل الموصلة لاسيما ومن الظاهر أنه قصد يثرب مُهاجَر أصحابه ومدينة أنصاره، فكان سهلًا عليهم أن يرصدوا طرق الوصول إلى المدينة.(١)

والسكينةُ هي مصدر الأمن النفسي، والتأييد بالجنود هو مصدر الأمن الحسي، فجمع الله لرسوله (ﷺ) وصاحبه بين مصادر السكن والأمن نفسيًا وحسيًا.

وقد جعل بعض العلماء الضمير في « **عَلَيْهِ** » عائدًا على أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أي أنزل الله سكينته على أبي بكر وأيد رسوله بجنودٍ لم تروها قالوا: لأن الرسول لم تزلْ معه سكينةٌ، أي أنه لا تفارقه السكينة فلا يحتاج لنزولها، وقد ردَّ عليهم ابن كثير (رحمه الله) بقوله: «وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال: «**وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**» **أي الملائكة**».(٢)

والمفهوم هنا من السياق أن الضمير عائدٌ على النبي (ﷺ)، وهذا يعد رفعًا لقدره ومكانته (ﷺ) وبيانًا للمعاناة النفسية التي واجهها في سبيل الدعوة، ثم إن تسكين قلبه (ﷺ) مصَدرٌ لسكينة أبي بكر.

وإضافة السكينة إلى ضمير الله تعظيمٌ لها وبيانٌ لأثرها البالغ في تثبيت النفوس وإزالة القلق والخوف وتنكير الجنود: «**بِجُنُودٍ**» يفيد التعظيم لهذه الجنود وقد وصفهم بجملة « **لَّمْ تَرَوْهَا**» ليؤكد على كمال القدرة الإلهية.

ثم جاء قوله سبحانه: «**وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ**

(١) التحرير والتنوير: ١٠/٢٠٤.

(٢) ينظر تفسير ابن كثير: ٢/٣٥٨.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ مستعملًا الفعل «وَجَعَلَ» مع الذين كفروا ليشير إلى التحول وإحداث أمرٍ جديدٍ، فكلمة الكافرين كانت عليا بقوتهم وتمكنهم لكنها صارت سُفلى، بينما مع كلمة الله لا يأتي الجعلُ وإنما يعبر بالجملة الاسمية: «﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾» ليفيد أنها عليا دائمًا بما في معنى الجملة الاسمية من الدلالة على الثبوت والدوام.

والمرادُ بكلمة الذين كفروا: شأنهم وكيدهم وما دبروه من أنواع المكر، ومعنى السُّفلى: الحقيرة؛ لأن السُّفْلَ يُكنى به عن الحقارة، وكلمة الله هي العليا: فهي الدين وشأن رسوله والمؤمنين.(١)

فكلمةُ الذين كفروا: هي الكفر وعبادة الأصنام، واجتماعهم في دار الندوة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وهي وقوفهم أمام داره ليلًا بسيوفهم لقتله (ﷺ)، وهي بحثهم عنه في أرجاء مكة، ورصدهم مائة ناقة جائزةً لمن يأتي برأسِ محمدٍ وصاحبه، وهي وصولهم إلى الغار لو نظر أحدهم أسفل قدميه لرآهما كل هذا هو كلمة الذين كفروا التي كانت مظنة القوة والشدة، فهم أصحاب العدد والعدة والكثرة والرأي والذكاء، لكنهم لما أعلنوا الحرب على الله ورسوله خذلهم الله وجعل كلمتهم السفلى الحقيرة التي لا وزن لها ولا ثقل لها ولا تأثير وعصم حبيبه (ﷺ) وصاحبه من كيد الكافرين.

والجعلُ يُنبئُ عن قوة خارقة قادرة على تعديل مسار الأشياء لا يستطيعها بشر، وهو يوحي بطلاقة القدرة الإلهية وخضوع الكون كله لله.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٠٦/١٠.

وقد أفاد ضمير الفصل « هِيَ » في قوله: «وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا» القصر حيث قصر المرتبة العليا على كلمة الله وحده دون سواه قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا قصر صفة على موصوف.

وهو يشير إلى تفرده – سبحانه – بالعُلُوِّ والعظمة والقدرة على نصر المظلوم نصرًا مؤزرًا حتى وإن كانت كل المؤشرات الواقعية توحي بالضعف والهزيمة والانكسار، واسمية الجملة بالإضافة إلى القصر توحي بأن كلمة الله هي العليا دائمًا وتفتح باب الأمل في تحقق النصر لدين الله في كل زمانٍ ومكان.

ثم ذيلت الآية بقوله سبحانه: «وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» وهو تذييلٌ متوافقٌ مع مضمون آية السكينة «فقد ناسب الوصفُ بالعزة الدالة على القهر والغلبة والحكمة الدالة على مايصنع مع أنبيائه وأوليائه ومن عاداهم من إعزاز دينه وإخماد الكفر».[1]

فالعزةُ تناسب النصر وإن خذله الناس، وإن أخرجه الذين كفروا، وتناسب كلمة الله العليا، وإخماد نار الكافرين، والحكمة تناسب عدالة السماء في الانتقام من الكافرين وردهم على أعقابهم خاسرين، وتناسب إحلال النبي (ﷺ) هذا المنزل لرفع قدره وتعظيم شأنه ومكانته وثوابه في مواجهة خطر المشركين.

– ومن خلال التحليل البلاغي لآية السكينة الثالثة يمكن أن نخلص إلى ما يأتي:

* **أولًا:** جاءت السكينة هنا تجديدًا لثبات النبي (ﷺ) وليست لمواجهة خوف حل بقلبه إذ هو في القمة العليا من الشجاعة والثقة في الله وجاءت كذلك تثبيتًا لقلب الصديق (رضي الله عنه) وإذهابًا لما حلَّ بقلبه من حزن واضطراب خوفًا على رسول الله.

(١) البحر المحيط: ٤٢٢/٥.

* **ثانيًا:** ربطت آيةُ السكينة هنا بين موقف الغار وموقف غزوة تبوك، وكلاهما محنةٌ وعسرٌ، الأول في نهاية العهد المكي والآخر في نهاية العهد المدني، الأعداءُ في الأول مشركون خُلَّص يناوئون النبي (ﷺ) وأصحابه ودعوته بكل ألوان الأذى الحسي، أما الثاني فالأعداءُ فيه منافقون خُلَّص يحاربون رسول الله (ﷺ) والمسلمين بكل أنواع الحرب النفسية، وفي ذلك الربط الواضح إبرازٌ لضرر المنافقين على الدعوة والرسالة فهم ليسوا أقل خطرًا من الكفار بل خطرهم أشدُّ، وعداوتهم أقوى، ولذلك سارع النبي (ﷺ) بعد الغزوة. بهدم مسجدهم وهو مسجدُ الضرار.

والمشهدُ الختامي في الموقفين واحد نصرٌ وسكينةٌ لرسول الله (ﷺ) ولأصحابه الكرام وفي هذا تهديدٌ لهؤلاءِ المنافقين وقطعٌ لحبال الأمل عندهم في القضاءِ على الإسلام ورسوله وفيه كذلك بثٌّ لروح الأمل والتفاؤل في أن الغدَ القريب سيكون أحسن وأجمل من الواقع المرير إذا تمسك المسلمون بهدي حبيبهم وساروا على سنته وجاهدوا في الله حق جهاده.

المبحث الثالث

السكينة في سورة الفتح

وردت السكينة في سورة الفتح في ثلاث آيات هي على الترتيب:

* الأولى في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

* الثانية في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

* الثالثة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

* ولنبدأ بذكر المقصد العام لسورة الفتح:

وسورة الفتح لها من اسمها نصيب فمقصودها مدلولُ اسمها الذي يعُمُّ فتح مكة وما تقدَّمَهُ من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما، وما وقع تصديق الخبر به من غلب الروم على أهل فارس وما تفرع من فتح مكة المشرفة من إسلام أهل جزيرة العرب وقتال أهل الردة وفتوح جميع البلاد الذي يجمعه كله إظهار الدين على الدين كله ليغيظ الكفار بالفتح الأعظم وما دونه من الفتوحات(١).

وهي مدنيةٌ كلها إجماعًا نزلت على النبي (ﷺ) وهو راجعٌ من عمرة الحديبية، وذلك أنه لما كانت هذه العمرة التي نزلت فيها هذه السورة قد حصل لهم فيها كسرٌ

(١) ينظر: نظم الدرر: ٢٧٣/١٨.

لرجوعهم قبل وصولهم إلى قصدهم، ولم يكن ذلك بسبب خللٍ أتى من قبلهم كما كان في غزوة أحد بشَّرهم سبحانه فيما في هذه السورة من البشائر الظاهرة إلى أن أمرهم لابد من تمامه وخفوق ألويته وأعلامه(١).

* علاقة الآيات بالمقصد العام للسورة:

لاشك أن الثبات في مقام استفزاز المشاعر هو عينُ الفتح وقد ارتبطت آياتُ السكينة الثلاثة في هذه السورة بمقامات متباينة الأولى في مقام تطييب خاطر المؤمنين المنصرفين عن مكة دون أن يعتمروا بعد إبرام الصلح مع أهلها في الوقت الذي جاءوا فيه موقنين بالاعتمار لرؤيا رسول الله (ﷺ) فكان هذا الرجوع مستفزًا للمشاعر وهنا تنزل السكينة في قلوب المؤمنين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤]، فهذا ما يتوافق مع الفتح المبين بل هو من مكملات الفتح.

ثم تأتي السكينة الثانية في مقام بيعة الرضوان حين أشيع قتل عثمان (رضي الله عنه) على أيدي أهل مكة لما بعثه النبي (ﷺ) رسولًا إليهم فجلس (ﷺ) تحت الشجرة فبايع المسلمين على مناجزة القوم حتى الموت فأنزل الله عليهم السكينة تثبيتًا لقلوبهم: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

ثم تأتي السكينة الثالثة أثناء كتابة الصلح بين الرسول وأهل مكة فيأبون كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» ومن محمد رسول الله ويستبدلون بهما «باسمك اللهم» «ومن محمد بن عبد الله» فيقرهما رسول الله على ذلك فيستفز مشاعر المسلمين

(١) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي: ٢/٤٩١-٤٩٣.

فتنزل السكينة على رسول الله وعلى المؤمنين فكان ذلك فتحًا مبيناً.

ومن ثم كان نزول السكينة في المقامات الثلاثة هو عين الفتح المبين.

* العلاقة بين آيات السكينة الثلاثة في سورة الفتح:

تجتمع هذه الآيات الثلاثة في أنها خاصة بعمرة الحديبية، وتعد جميعها مع اختلاف مقاماتها – كما سبق – مظهرًا عظيمًا من مظاهر الفتح تثبيتًا للمسلمين في هذا الموقف المزلزل المستفز للمشاعر حمية لله ولرسوله (ﷺ)

غير أنها تفترق في طريقة وأسلوب نظمها تبعًا لاختلاف مقاماتها، فالسكينة الأولى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤]، جاءت معرفة، وخاصة بالمؤمنين، ومتعدية بحرف الظرفية «فِي» كل ذلك يتوافق مع أهليتها وقوتها على تحقيق زيادة الإيمان واستقرار النفوس «لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ».

بينما السكينة في بيعة الرضوان: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]، جاءت بعد تحقيق رضا الله عن المؤمنين فتحققت بعد أن شهد الله لهم بشهادتين: الرضا عنهم والإيمان ذلك لأنهم باعوا أنفسهم لله وبايعوا رسول الله على الموت فاستحقوا بذلك إنزال السكينة عليهم هكذا بتعريف السكينة لتعظيمها وقد تعدت بحرف الاستعلاء «على» « فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » لتعمهم ظاهرًا وباطنًا، وكأنه سبحانه نتيجة لهذا الرضا وهذا الإيمان كافأهم بثلاثة أشياء: إنزال السكينة عليهم والفتح والمغانم الكثيرة.

بينما تأتي السكينة الثالثة في مقام كتابة الصلح: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦]. فتشتد حمية الجاهلية لدى الكافرين فيكتبون في بنود الصلح ما أرادوا ويحذفون ما أرادوا فتستفزُّ مشاعرُ المؤمنين فيثبتهم الله بإنزال سكينته على رسوله ليقبل ما أرادوه لعلم الله الخفي بما في ذلك من نفع عظيم لهم، وعلى المؤمنين ليذعنوا لأمر الله وأمر رسوله.

فناسب ذلك أن تضاف السكينة إلى ضمير الله «سَكِينَتَهُۥ» لتعظيمها وإعلاء قدرها.

السكينة الأولى في سورة الفتح

يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

*** سبب النزول:**

هذه الآيةُ الكريمةٌ هي الآيةُ الرابعةُ من آياتِ السكينة، والرابعةُ من سورة الفتح، وسورةُ الفتح مدنيةٌ نزلت بعد انتهاء النبيِّ (ﷺ) من صلح الحديبية سنة ستٍ من الهجرة في عودته منْ مكةَ إلى المدينة.

وقد ذكر العلماءُ أن المراد بالفتح هنا هو صلح الحديبية، وقد كان ظاهِرُ شروط الصلح الإجحاف بالمسلمين، فمن بنوده أن يرجعَ النبيُّ (ﷺ) عامه هذا فلا يدخل مكة ويعتمر العام القابل، ووضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ومن أتى محمدًا من غير إذن وليه رده إليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمدٍ لم يردوه إليه.

المسلمون يتساءلون: كيف يخبرنا النبي (ﷺ) أنه رأى أنه يطوف بالبيت ويصدنا المشركون عن دخوله؟! ثم ألسنا على الحق وهم على الباطل فعلام نعطي الدنيَّةَ في ديننا؟!.

وهنا صارت مشاعِرُ المسلمين جريحةً، بحيث غلب الهمُّ والحزنُ على التفكير في عواقب بنود الصلح، ولعل أعظمهم حُزنًا كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبي (ﷺ) وقال: يا رسول الله: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: «بلى» قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: «يا ابن الخطاب: إني رسول الله ولستُ أعصيه، وهو ناصري ولن يضيعني أبدًا» قال: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوفُ به؟ قال: «بلى، فأخبرتُك أنا نأتيه العام؟ قال: لا قال: «فإنك آتيه ومطوِّفٌ به».

ثم انطلق عمرُ متغيِّظًا فأتى أبا بكر فقال لهُ كما قال لرسول الله (ﷺ) وردَّ عليه أبو بكر كما ردَّ عليه رسول الله (ﷺ) وزاد: فاستمسِكْ بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلخ سورة الفتح فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأهُ إياهُ فقال: يا رسول الله: أو فتحٌ هوَ؟ قال: «نعم» فطابت نفسُه ورجع.

ثم ندم عمرُ على ما فرط منه ندمًا شديدًا، قال عمرُ: فعملت لذلك أعمالًا مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذٍ، مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوتُ أن يكون خيرًا.

لقد اشتدت الكآبةُ على المسلمين وامتلأت قلوبهم حزنًا وصدورهم غيظًا من هذا الصلح الذي اعتبروه إهانةً لهم واستخفافًا بهم حتى إنهم حين فرغ النبي (ﷺ) من قضية الكتاب أمرهم قائلًا: «قوموا فانحروا» فوالله ما قام منهم أحدٌ حتى قال ثلاث مراتٍ فلما لم يقم منهم أحدٌ قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت يا رسول الله: أتحبُّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا كلمةً حتى تنحرَ بُدَنَك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك تحر بُدْنَهُ ودعا حالقهُ فحلقهُ، فلما رأى الناسُ ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.(١)

وإنما أطَلْتُ بذكر السياق العام للآية، وسبب نزول سورة الفتح، لأنها اشتملت

---

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ ٣٩٧ – ٤٠٠ تحقيق: كمال بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١١هـ وتفسير ابن كثير ١٨٢/٤ وما بعدها، والرحيق المختوم: ٢٩٤ – ٣٠٢، والسيرة النبوية لابن هشام: ١٩٨/٣ – ٢١٢ دار الفجر للتراث الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

على نصف آيات السكينة الست، ففيها ثلاثُ آياتٍ، أولها هذه الآية، وجميعها مرتبطٌ بمقام الفتح الذي هو صلح الحديبية حيث ثارت حفيظة المسلمين لما رأوه من قهر وإهانة – حسب اعتقادهم – بسبب تلك الشروط المجحفة، بينما يتبين لاحقًا أنهما كانوا مخطئين في هذا الظن ويثبتهم الله شيئًا فشيئًا وتنزل السكينة عليهم ثلاث مراتٍ في هذا الصلح في مقاماتٍ متباينة؛ كل مقام منها أو موقف يستفز مشاعرهم، ويهيج فيهم حِميَّة الانتصار لله ولرسوله فتنزل السكينة فتبث في قلوبهم الأمن والأمان.

عن جابر (رضي الله عنه) **قال:** «ما كُنا نعُدُّ الفتح إلا يومَ الحُديبية» وعن البراء (رضي الله عنه) قال: «تعُدونَّ أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتحُ مكة فتحًا ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرِضوان يوم الحُديبية».(١)

* علاقة الآية بما قبلها:

مهدت السورة الكريمةٌ لآية السكينة هنا ببُشرى النبي (ﷺ) بفتح مكة، وبأن هذا الصلح هو الفتح الحقيقي، وبمعفرة الله له ذنوبه كلها ما تقدم منها وما تأخر، وبإتمام النعمة عليه وهدايته إياه صراطًا مستقيمًا ونصره نصرًا عزيزًا، وكلها مُبشِّراتٌ مُفرِحَةٌ للنبي (ﷺ) والمؤمنين.

ولذلك روي عن أنسٍ قال: «لما أُنزل على النبي (ﷺ) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] مرجعه من الحديبية. قال: «لقد أنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئًا مريئًا يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١٨٢/٤.

﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٥].(١)

وهكذا تتوسطُ آيةُ السكينة هنا تلك المبشرات بالخير المفُرحاتِ للقلوب المسكنات للجروح والآلام، فتنزل السكينةُ في قلوب المؤمنين فتردهم إلى الإيمان والتسليم والإذعان لأمر الله وأمر رسوله وإن كان على خلاف أهوائهم ومرادهم.

*** التحليل البلاغيُّ للآية:**

لقد بدأت آيةُ السكينة بهذه الجملة الاستئنافية « **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** »وهو استئنافٌ بيانيٌّ الغرضُ منه بيان عناية الله بعباده المؤمنين المخلصين بتثبيتهم في مواقف الاضطراب بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم ورجوعهم إلى الحق وإذعانهم لرسول الله (ﷺ).

وقد جاء الطرفان هنا معرفين: المسند إليه بضمير الغائب « هُوَ »والمسندُ بالاسم الموصول «ٱلَّذِىٓ».

وقد أفاد تعريفُ الطرفين قصر المسند على المسند إليه حقيقةً أي أن الصلة أفادت هنا قصر إنزال السكينة عليه سبحانه دون سواه قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا قصر صفة على موصوف.

وجملة الصلة هنا «**أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** »لفتت النظر إلى تلك القدرة الإلهية الخارقة التي لا يستطيعها غيره سبحانه، وأشارت إلى أن «تلك القصة اللافتة والتي جذبت أنظاركم إلى محيط النظر فيها إنما فاعلها هو الله، ولو حذفت الموصول في ذلك ونقلت الجملة من وضعها أي كونها صلة لها هذه الخصوصية

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: ١١٧/٤.

إلى أن تكون خبرًا فحسب لذهب هذا المعنى».[(١)]

والتعبير هنا حقيقيٌّ ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهو يشير إلى سكْب السكينة في قلوب المؤمنين تثبيتًا لهم، وإشعارًا لهم بالطمأنينة والرضا عما اتخذه رسول الله (ﷺ) من قرار الصلح مع المشركين.

وتعريفُ السكينة بأل يشير إلى كمالها وبلوغها غاية الرفعة والأمان.

والسكينةُ: هي السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهُدنة غبَّ القتال فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، أو أنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد (ﷺ) من الشرائع. [(٢)]

وإنما اختار القلب موطنًا للسكينة؛ لأن القلب مجمعُ المشاعر وموطن الأحاسيس من الخوف والقلق والتردد والحيرة وغيرها فملأ قلوبهم بالسكينة حتى لا يدع منفذًا لتلك الوساوس الشيطانية الخبيثة يتسلل منه الشيطان.

وسماهم الله (ﷻ) ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تشريفٌ وتعظيمٌ لهم وشهادةٌ من الله بالإيمان، وبيانٌ لأهليتهم لنزول السكينة في قلوبهم.

ولاشك أن نزول السكينة كان الغرض منه تثبيت قلوب المؤمنين حتى يزدادوا إيمانًا مع إيمانهم وهو قوله سبحانه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

قال ابنُ عباس: «بُعث النبيُّ (ﷺ) بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة، فلما صدقوه زادهم الزكاة، فلما صدقوه زادهم الصيام، فلما صدقوه زادهم الحج ثم أكمل لهم دينهم فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي تصديقًا

(١) خصائص التراكيب : ٣٠٥.

(٢) الكشاف: ٤/٢٢٦، ٢٢٧.

بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان، وقيل: خشيةً مع خشيتهم، وقيل: يقينًا مع يقينهم». (١)

ففي هذه الجملة: «لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ» بيانٌ لتأثير نزول السكينة في قلوبهم في زيادة الإيمان فوق إيمانهم، وذكر المعية شهادةٌ لهم من الله بالإيمان من قبل، وقد دل على عظمة الإيمان الجديد بتنكيره «إِيمَٰنًا» إشعارًا بقوته وتمكنه من القلوب.

ثم بين سبحانه أن من مظاهر تحقيق السكينة لدى المؤمنين أن يعلموا أن جنود الله لا حصر لها ولا عدد ومتى استدعاها اللهُ لَبَّت النداء فقال: «وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» يعني: الملائكة والإنس والجن والشياطين يدبر أمرهم كيف يشاء ويسلط بعضهم على بعضٍ ويحوط بعضهم ببعضٍ(٢) ومنها الريح والمطر والرعب وغيرها.

وقد أفادت الجملةُ قصر جنود السماوات والأرض على الله قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، فقد يكون للملوك والقادة جنودٌ لكن جنود السماواتِ والأرضِ هكذا بهذا العموم ليست إلا لله.

ووراء ذلك تهديدٌ لأهل مكة ولجميع المشركين المعادين لرسول الله (ﷺ) وللإسلام والمسلمين في كل زمانٍ ومكانٍ إن هم تمادوا في عدواتهم أن يسلط الله عليهم جندًا من جنوده كما سلط الملائكة في بدرٍ، والريح في الأحزاب وغيرهما كثير.

وإضافةُ «جُنُودُ» إلى «ٱلسَّمَٰوَٰتِ» يثير الرعب والفزع في النفس، وعطف

---

(١) تفسير القرطبي: ٢٦٤/١٦.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ١١٥/٤.

الأرض عليها يُشعرُ الإنسان بأن ما يملكه ويسيطر عليه قد ينقلب جندًا ضده في أي لحظةٍ بأمر الله.

ثم ختمت الآيةُ الكريمة بهذا التذييل: «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا»، وهو تذييلٌ لما قبله من الفتح والنصر وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين، والمعنى: اللهُ عليمٌ بأسباب الفتح والنصر، وعليمٌ بما تطمئنُ به قلوب المؤمنين بعد البلبلة، وأنه حكيمٌ يضعُ مقتضيات علمه في مواضعها المناسبة وأوقاتها الملائمة.(١)

فختام الآية بالعلم والحكمة يتوافق مع سياقها ومقامها ومضمونها ويتناسبُ مع ما خفي عليهم من حكمة الصلح، وما ظهر لهم من حكمٍ وأسرارٍ ومكاسبَ حصل عليها المسلمون، وهي تتمثل فيما يأتي:

(١) اعتراف قريش بالمسلمين بدليل عقد الصلح معهم.

(٢) وضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنين.

(٣) تفرغ المسلمين للدعوة ولذلك زاد عددهم من ثلاثة آلافٍ قبل الهدنةِ إلى عشرة آلافٍ عام الفتح.

(٤) تفرغ النبي (ﷺ) والمسلمين لقتال خيبر وهم البقية الباقية من اليهود للقضاء على هذا الوكر الخبيث من أوكار الخديعة والتآمر، وأنعم الله عليهم بغنائمها.

(٥) حقن الدماء من الطرفين وعدم انتهاك حرمة البيت الحرام.

وغير ذلك من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله وتشتمل عليها أو تشير إليها هذه الجملة التذييلية لآية السكينة وهي قوله سبحانه: «وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

ولاشك أن ماضوية الفعل «كان» تشير إلى أزلية تلك الصفات عند رب

(١) التحرير والتنوير: ١٥١/٢٦.

العالمين أزلية تتصاغرُ أمام رهبتها كل الاعتبارات.

ويمكن أن نخلص من خلال تحليلنا البلاغي لآية السكينة الرابعة إلى ما يأتي:

* **أولًا:** جاءت السكينةُ هنا معرفة بأل، وهي سكينةٌ خاصةٌ بالمؤمنين، لم يحتجْ إليها رسول الله (ﷺ) كما في حنين والغار، والغرض منها تثبيت قلوب المؤمنين، فاستأصلت من نفوسهم نوازع الشيطان، ورسخت فيهم اليقين والثقة في نصر الله، وإن كان ظاهر الأمر قد جاء على غير ما يحبون، وأكدت لديهم عقيدة الإيمان بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* **ثانيًا:** إذا كانت السكينةُ فيما سبق من آيات مرتبطة بمقام الجدال والمراوغة كما في سكينة بني إسرائيل، أو العُجْب كما في سكينة غزوة حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥]، أو التثاقل عن الجهاد كما في سكينة الغار ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] فإنها هنا مرتبطة بمقام الطاعة والرضا فقد سبقت بالفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية إلى الطريق المستقيم والنصر العزيز وأُتبعت بإدخال المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار وتكفير سيئاتهم ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥].

وهذا يشير إلى عظم مقام السكينة هنا لما يحيط بها من نعم ومغفرة ونصر وجنات فهي سكينةٌ لها مذاقٌ خاصٌ يتوافق مع القيمة العسكرية لصلح الحديبية التي بدت في أول الأمر محجوبة عن أعين الناس.

السكينة الثانية في سورة الفتح

وهي السكينة التي تتعلق ببيعة الرضوان يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

*** سبب النزول:**

هذه هي الآيةُ الثانية من آيات السكينة التي وردت في سورة الفتح، وهي الخامسةُ من آيات السكينة على وجه العموم، وهي تعد امتدادًا لآية السكينة الأولى الواردة في سورة الفتح.

والمراد بالبيعة هنا هي بيعةُ الرضوان وسببُها أن رسول الله (ﷺ) بعث عثمان (رضي الله عنه) رسولًا إلى أهل مكة ليخبرهم أنه لم يأتِ لحربٍ وإنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته فلما فرغ من رسالته احتبسته قريشٌ عندها، فبلغ رسول الله (ﷺ) والمسلمين أن عثمانَ قد قُتِل فقال (ﷺ) حين بلغه ذلك: «لا نبرحُ حتى نناجز القوم»؛ ودعا رسول الله (ﷺ) الناسَ إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناسُ يقولون: بايعهم رسول الله (ﷺ) على الموت، وكان جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) يقول: لم يبايعْهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفرَّ، فبايع الناسُ فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ودعوا إلى الموادعة والصلح، وعلم رسول الله (ﷺ) أن الذي كان من أمر عثمان باطلٌ.

وقد بدأ النبي (ﷺ) في هذه البيعة بالبيعة بنفسه لعثمان قائلًا: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يدُ رسول الله (ﷺ) لعثمان (رضي الله عنه) خيرًا من أيديهم لأنفسهم.

وروي عن جابر (رضي الله عنه) أنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فقال لنا رسول

الله (ﷺ): «أنتم خيرُ أهل الأرض اليوم» قال جابر (رضي الله عنه) لو كنت أُبصِرُ لأريتكم موضعَ الشجرة.

وروي عنه كذلك أن رسول الله (ﷺ) قال: «لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة»، وكانت الشجرةُ سمُرةً بأرض الحديبية.(١)

وقد أشارت السورةُ الكريمة إلى تلك البيعة قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. فكان ذلك ثناءً من الله (عز وجل) عليهم بأنهم بذلك إنما يبايعون الله وأنه مُثبتهم وناصرهم «**يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**».

فنزول السكينة في هذا المقام كان من الأهمية بمكان؛ تثبيتًا للمسلمين وبثًّا للطمأنينة في قلوبهم لأنهم بايعوه (ﷺ) على الموت أو على عدم الفرار، قصاصًا لعثمان (رضي الله عنه) وهو قرارٌ جريءٌ يحتاجُ إلى قلوب مؤمنةٍ عامرةٍ باليقين والثقة فيما عند الله، فوضعوا في مقام ابتلاءٍ واختبارٍ لكنهم اجتازوه بنجاحٍ بما ألقى الله في قلوبهم من السكينة، فكافأهم الله (عز وجل) بالرضوان والجنة والنعيم المقيم، ومنَّ عليهم بالصلح مع أهل مكة ووضعت الحربُ أوزارها.

* التحليل البلاغي للآية:

بدأت آيةُ السكينة هنا ببيان تحقيق رضا الله (عز وجل) عن المؤمنين المبايعين للنبي (ﷺ) تحت الشجرة يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) ينظر في ذلك: تفسير ابن كثير: ١٨٦/٤ – ١٩١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢٠٤/٣، ٢٠٥.

وهو كلامٌ مستأنفٌ لتقريرِ الرضا عن المبايعين ولذلك سميت بيعة الرضوان، واللام موطئةٌ للقسم وقد حرف تحقيق.(١)

وقد أكد الله (ﷻ) هذا الرضا بمؤكداتٍ عدة منها اللامُ وهي موطئةٌ لقسمٍ محذوفٍ أي والله لقد، ومنها القسم المحذوفُ المفهوم من اللام، ومنها «الله» وهي حرفُ تحقيقٍ، ومنها ماضوية الفعل «رَضِيَ» حيث تشير إلى تحقق الرضا ووقوعه فعلًا على المؤمنين.

وإنما جاء المسندُ إليه وهو الفاعل معرفًا بالعلمية واسم الجلالة « ﷺ» ليبين كمال الرضا وشموله وعظمته، ولذلك ورد أن النبي (ﷺ) قال لهم: «أنتم اليوم خيرُ أهلِ الأرضِ».(٢)

والرضا ضدُّ السَّخطِ يقال: رضيتُ عنك وعليك، فقد يُعَدَّى بعلى، لأنك إذا رضيت عنه أحببته وأقبلت عليه، وقوله (ﷻ): ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] تأويله أن الله تعالى رضي عنهم أفعالهم ورضوا عنه ما جازاهم به.(٣)

فالأصلُ في الفعلِ أن يُعدَّى بـ «عن» لكنه قد يُعدَّى بـ «على» تأويلًا أو مجازًا والأصل في «عن» إفادة المجاوزة والبعد، ولما وجد النحاة أن بعض التراكيب التي عُدِّي فيها الفعل بـ «عن» لا يبدو فيها بُعْدُ شيءٍ عن شيءٍ مثل: (ﷺ)، حيث لم يجاوز الرضا المجرور أو يجاوزه المجرور، اضطروا إلى تفسير المجاوزة بما يتسع له ولأمثاله. ففي نحو: رضي الله عنك أي: جاوزتك المؤاخذة

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين درويش: ٢٤٣/٩.

(٢) الكشاف للزمخشري: ٢٣٢/٤.

(٣) اللسان: رضى.

بسبب الرضا.(١)

وفي ذكر «الْمُؤْمِنِينَ» إبرازٌ وبيانٌ لسبب الرضا وهو الإيمان وشهادةٌ لهم من الله بتحقيق الإيمان في قلوبهم، حيث كان سببًا قويًا في المبادرة إلى المبايعة ثقة فيما عند الله.

وقد وَقَّتَ الله (ﷻ) زمن الرضا بهذا الظرف: «إِذْ» فهو ظرفٌ للزمان الماضي مبني على السكون في محل نصب بـ «رَضِيَ» وهو مضاف إلى جملة «يُبَايِعُونَكَ».

وفي تعليق هذا الظرف بفعل الرضا ما يفهم أن الرضا مُسَبَّبٌ عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف إليه.(٢)

والمبايعةُ مفاعلةٌ فهي تقتضي اشتراكًا بين شيئين وتفاعلًا بين الطرفين، والطرفان هما رسول الله (ﷺ) والمؤمنون، فقد طلب (ﷺ) المبايعة من المؤمنين فأجابوه إليها عن طيب خاطرٍ مسرعين إلى رضاه.

وكان مقتضى المقام أن يأتي بالفعل الماضي «بايع» ولكنه عدل عنه لسر بلاغي وهو استحضار صورة المبايعة، لأنها جديرةٌ بالتجسيد لتكون عبرة الأجداد للأحفاد.(٣)

وإذا كان الظرف السابق «إِذْ» قد حدد الزمان، فقد جاء الظرف التالي «تَحْتَ»

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضري: ٢٩٩، ٣٠٠ مكتبة وهبة- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) التحرير والتنوير: ١٧٣/٢٦.

(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش: ٢٤٤/٩، ٢٤٥.

ليحدد المكان في قوله سبحانه: « تَحْتَ الشَّجَرَةِ» وهي شجرةٌ كانت بالحديبية كانت سَمُرةً وقيل سِدْرةً.(١)

والتعريف في الشجرة تعريف العهد، أي الشجرة المعهودة عند أهل البيعة حين كان النبي (ﷺ) جالسًا في ظلها.(٢)

وقد نلمح من مجيء ظرف المكان هنا مضافًا إلى الشجرة «تَحْتَ الشَّجَرَةِ» إشارةً إلى استحضار صورة المبايعة وهيأة المسلمين وهم يتوافدون على النبي (ﷺ) وهو جالسٌ تحت ظل الشجرة تجسيمًا للمشهد وتصويرًا للحدث من خلال تحديد عنصري الزمان والمكان.

وبعد مرور الزمن كاد بعض الناس أن يفتن بتلك الشجرة ويعظمها، وذلك في زمان عمر (رضي الله عنه) حيث بلغه أن قومًا يأتون الشجرة يصلون عندها فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت، والحكمةُ في ذلك ألا يحصل الافتتان بها.(٣)

والفاءُ في قوله : «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» ليست للتعقيب؛ لأن علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم؛ ولا عقب وقوع بيْعتهم، فتعين أن تكون فاءً فصيحةً تفصح عن كلامٍ مقدرٍ بعدها والتقدير: فلما بايعوك علم ما في قلوبهم من الكآبة، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الإخبار بأن الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضى الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم.(٤)

والموصول «ما» مفعولٌ به للعلم، وهو موصولٌ عامٌ يشملُ كل ما في القلوب

---

(١) ينظر الكشاف: ٢٣٢/٤، وفتح القدير: ١٢٠/٤.

(٢) التحرير والتنوير: ١٧٤/٢٦.

(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش: ٢٤٦/٩.

(٤) التحرير والتنوير: ١٧٥/٢٦.

من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه، والوفاء والرضا بأمر البيْعة على عدم الفرار إلى غير ذلك من المعاني القلبية ولذا خص القلوب ظرفًا للعلم هنا « مَا فِي قُلُوبِهِمْ ». لاستتارها عن الحواس وغموض ما فيها، وخصوصية علم ذلك بالله (ﷻ) دون سواه.

ولما كان رضا الله (ﷻ) عن المؤمنين وقت المبايعة لما علمه في قلوبهم من صدقٍ وإخلاصٍ استحقوا بذلك إنزال السكينة عليهم حيث كانوا أهلًا لها يقول تعالى: «فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ».

والفاء للتعقيب وهي تشير إلى وقوع السكينة عليهم دون مهلةٍ أو زمن تأكيدًا على رضا الله عنهم وإكرامه إياهم.

والسكينة هي الطمأنينةُ وسكون النفس والأمن بسبب الصلح والثقة بتحقيق ما وعدهم الله من الفتح.(١)

وإنزال السكينة عليهم إنزالٌ لها في قلوبهم بل أعمُّ لما في «على» من معنى الاستعلاء والدلالة على إحاطة السكينة بهم وتمكنها من قلوبهم.

فإذا كانت السكينةُ الماضية في أول الفتح ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤]. قد نزلت في قلوبهم هكذا بحرف الظرفية «في» بما يوحي به من سكونها في القلب واستقرارها فيه ذلك لأن المقام هناك مقامُ اعتراضٍ من المؤمنين على شروط الصلح المُجْحِفة التي قبِل بها رسول الله (ﷺ) فكان لابد من استقرار السكينة في جوف القلب لكي تنساب إلى سائر الأعضاء والحواس فتهدأ نفوسهم ويذعنون للنبي (ﷺ) ويسلمون له فيما اتخذه من قراراتٍ ولو كانت على

(١) ينظر فتح القدير: ١٢٠/٤، والكشاف: ٣٢/٤، ٢٣٣، والتحرير والتنوير: ١٧٦/٢٦.

غير هواهم.

فوافق أو ناسب حرف الظرفية «في» هناك تهدئة النفس بما يتوافق مع الأدب في مقام خطاب النبي (ﷺ).

بينما تأتي «على» هنا في مقام بيع المؤمنين أنفسهم لله، لأن المبايعة على القتال تعني الموت وهو أمرٌ جدٌّ خطير وقرارٌ صعبٌ وشاقٌّ على النفس التي جبلت على حب الحياة بفطرتها، فناسب ذلك أن تتسكب السكينة على قلوبهم أو عليهم جميعًا إعلانًا عن إحاطتها بهم وشمولها لكل جوارحهم تثبيتًا لهم، حيث لا مفرَّ من المواجهة والموت ولذلك أسفرت السكينةُ عن نجاحهم في هذا الابتلاء: «فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا».

فمنَّ اللهُ عليهم بالصلح والغنيمة والفتح، فكان الفتح المبين هو الجائزة الثانية لهم بعد إنزال السكينة عليهم.

والفتحُ في قوله سبحانه: «وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا» هو فتحُ خيبر عند انصرافهم من الحديبية، وقيل فتح مكة والأول أولى[1] ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ١٩] إذ المراد بها مغانم «خيبر» وكانت أرضًا ذات عقارٍ وأموالٍ فقسمها رسول الله (ﷺ) عليهم وقد اتسعوا بثمرها زمانًا.[2]

فهم لم يأخذوا مغانم من مكة وإنما أخذوها من خيبر ولفظ «قَرِيبًا» يؤكد هذا المعنى حيث اتجه النبي (ﷺ) من مكة بعد انصرافه من الحديبية عقب الصلح إلى خيبر فأغنمه الله نخيلها وأرضها وأموالها.

---

(١) فتح القدير للشوكاني: ٤/١٢٠.

(٢) الكشاف للزمخشري: ٤/٢٣٣.

ولفظُ الإثابةِ في « **وَأَثَٰبَهُمۡ**» يشير إلى الجزاء والعطاء، فإنزال السكينة يمثل الجزاءَ المعنويَّ أما الفتح والمغانم فيمثل الجزاء الحسِّي.

وهكذا تتدفق السكينة على المؤمنين المبايعين فتشير إلى صدق نيتهم وعزيمتهم في تلك البيعة وإن كان الثمن هو الشهادةُ في سبيل الله.

ويمكن أن نخلص من خلال تحليلنا البلاغي لآية السكينة الخامسة بما يأتي:

* **أولاً:** هذه السكينة تعد امتدادًا للسكينة الأولى في سورة الفتح فالمناسبة واحدةٌ وهي صلح الحديبية بينما المقام مختلف، فإذا كانت السكينة الأولى تثبيتًا وتهدئة لقلوب المؤمنين حتى يقبلوا الصلح الذي أقره رسول الله (ﷺ) مع ما فيه من إجحافٍ بحقوقهم – كما يتصورون – فإن السكينة هنا جاءت تقوية للمؤمنين وشدًا لعزائمهم في مواجهة حاسمة فرضتها الظروف دون استعدادٍ سابق، فهم إنما جاءوا مُحْرِمين وليسوا مقاتلين ولذلك جاء حرف الجر «على» «**فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ**» حتى تَقْوى على استئصال نوازع النفس البشرية ووساوسها من الخوف أو النكوص عن مواجهة الأعداء.

* **ثانيًا:** إذا كانت سكينةُ الفتح الأولى قد سبقت بإنعام الله (ﷻ) على رسوله بالمغفرة ﴿ **لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا** ﴾ [الفتح: ٢ – ٣] فإنها هنا قد سبقت بإنعام الله (ﷻ) على المؤمنين المبايعين بالرضوان: ﴿ **لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ** ﴾ [الفتح: ١٨].

وأُتبِعَتْ بالفتح والغنيمة ﴿ **وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَا** ﴾ [الفتح: ١٨ – ١٩] من أجل ذلك جاءت السكينةُ في الموضعين معرفة بأل، إشارة

إلى كمالها وتمامها بما يتوافق مع فيض المغفرة وعظمة الرضوان.

فحين تقرؤها تشعر بأنها سكينةٌ من الجنة تناسُبًا مع ألفاظ الفتح، والمغفرة، وإتمام النعمة، والهداية إلى صراطٍ مستقيم والنصر هناك، وهنا مع الرضوان، والفتح والغنائم، وإن اختلفت طريقة الإنزال لاختلاف المقام.

السكينة الثالثة في سورة الفتح

وهي المتعلقة بمقام كتابة صلح الحديبية يقول تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

*** سبب النزول**:

هذه هي الآية السادسة والأخيرة من آيات السكينة عمومًا، والثالثة والأخيرة من سكينات «الفتح».

والسكينة هنا مخصوصةٌ بوقت كتابة الصلح مع سهيل بن عمروٍ حيث اشتد الأمرُ على المسلمين وضاقت نفوسهم ذرعًا بشروط أهل مكة، والذي زاد الأمر تعقيدًا أنهم حين بدأوا في كتابة هذا العهد أمر النبيُّ (ﷺ) عليَّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال: اكتبْ: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سُهيلٌ وأصحابُه: ما نعرفُ هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال رسول الله (ﷺ): «اكتب باسمك اللهُمَّ» »هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله» فقال سهيلٌ بن عمرو: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ بنُ عبد الله أهل مكة فقال رسول الله (ﷺ): «اكتب ما يريدون فأنا أشهدُ أني رسول الله، وأنا محمدٌ بنُ عبد الله» فهم المسلمون أن يأبَوْا ذلك ويشمئزُّوا منه، ودخل الناس من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا أن يهلكوا، ومما زاد الناسَ شرًا إلى ما بهم ما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو حين جاء مستغيثًا بالمسلمين فرده النبي (ﷺ) فصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين: أترُدُّوني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟ فقال له النبي (ﷺ): «يا أبا جندل اصبر واحتسبْ فإن الله تعالى جاعلٌ لك

ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدًا وإنا لن نغدر بهم».

وكانت حَمِيَّتُهم أنهم لم يُقرُّوا أنه رسولُ الله، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.(١)

فالسكينةُ الأولى إذًا كانت عقب وصولهم الحديبية حين علموا أن أهل مكة يصدونهم عن البيت الحرام، والسكينة الثانية كانت في بيعة الرضوان حين أُشيع قتل عثمان، والسكينةُ الثالثة كانت في وقت كتابة الصلح بين رسول الله وأهل مكة.

ونلحظُ هنا في هذا المقام أن المسلمين كانت مشاعرهم على حافة الانفجار، حيث زادت حِدةُ الاستفزاز شيئًا فشيئًا من قبل المشركين وهم يكتبون الكتاب، فأنزل الله السكينة تُصبِّرُ المؤمنين وتقودهم إلى الإذعان لأمر الله وأمر رسوله وإن كان ذلك على ما يكرهون حقنًا للدماء، وحفظًا لحرمة البيت الحرام، وقبل ذلك كله سمعًا وطاعةً لله.

* التحليل البلاغيُّ:

بدأت آيةُ السكينة هنا بقوله سبحانه: « إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ »وهي بدايةٌ نشير في صدر الآية إلى السبب الذي من أجله نزلت السكينة وهي تلك العصبيَّةُ الجاهلية والحميَّةُ الغاشمة التي ملأت قلوب المشركين فحملتهم على صدِّ المسلمين عن البيت الحرام في سابقةٍ لم يحدُثْ لها نظيرٌ في تاريخ العرب الوثني، فهم على الرغم من وثنيتهم لم يصدوا عن بيت الله أحدًا من قبل إلا من أراده بسوءٍ، وهم يعلمون أن النبي (ﷺ) لم يجيءْ للقتال وإنما

(١) تفسير ابن كثير: ٤/١٩٦-١٩٩، والكشاف للزمخشري: ٤/٢٣٥.

جاء معتمرًا فصدوه عن المسجد الحرام حميَّةً وأنفةً من أن يتحدث بهم العرب أنه دخلها عليهم عنوة.

وتبدأُ الآيةُ بهذا الظرف الماضي «إِذْ» وهو متعلقٌ بقوله ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥] أي صدوكم وقت الحميَّة والأنفة، أو بقوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الفتح: ٢٥] أي لعذبناهم في هذا الوقت، أو أنه منصوبٌ بإضمار فعلٍ محذوفٍ تقديره: «اذكرْ»[(١)]

وتعليق هذا الظرف بالفعل « وَصَدُّوكُمْ» يُشْعرُ بتعليل الصد بكونه حميَّة الجاهلية ليفيد أن الحمية متمكنةٌ منهم تظهر منها آثارُها فمنها الصدُّ عن المسجد الحرام.[(٢)]

والجعْلُ يُنبئُ عن التكلُّف المخالف لما فُطِرَ عليه الإنسانُ حيثُ نكَّسَ هؤلاءِ الكافرون الفطرة الصافية بصدهم عن بيت الله الحرام، والحميَّةُ مخالفةٌ للفطرة السويَّة المستقيمة.

وقد جاء المسندُ إليه مُعرَّفًا بالاسم الموصول «ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟»وهو فاعل الجعل ليتمكن من وصفه بأبشع أوصافه وهي الكفرُ، وهو كفرٌ بالله وكفرٌ بالنعم التي أنعم الله (ﷻ) بها عليهم لكنهم لم يعرفوا حقها.

والحميَّةُ: الأنفةُ يُقالُ: فلانٌ ذو حَمِيَّةٍ مُنكرة إذا كان ذا غَضبٍ وأَنَفةٍ وغيظٍ وغيْرة[(٣)] قال الزهري، حميَّتُهم أَنَفَتُهم من الإقرار للنبي (ﷺ) بالرسالة، والاستفتاح

(١) ينظر: الكشاف: ٤/٢٣٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/١٩٣.

(٣) اللسان: حما.

ببسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من دخول مكة، وقال ابنُ بحر: حميَّتهم: عصبيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى والأنفة من أن يعبدوا غيرها، وقيل: حميَّةُ الجاهلية: أنهم قالوا: قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا واللاتِ والعُزى لا يدخلها أبدًا.(١)

وإنما خص القلوب « فِي قُلُوبِهِمُ » لكونها ظرفًا للأحقاد والضغائن وغيرها من تلك الصفات التي أذكت نار الحمية والعصبية الجاهلية في قلوب الكفار، وإضافة الحمية إلى الجاهلية «حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ» يُشعر بحقارتها وضعتها وخُبثها، فلم تكن حميَّة للقصاص العادل أو ترفعًا عن قبول مواطن الضيم أو أنفة من الذُل وإنما كانت تعصبًا طائشًا وجاهلية حمقاء تشفيًا من رسول الله (ﷺ) والمؤمنين، فهي كِبرٌ أجوف وغباءٌ مستحكم.

وقد كانت هذه الحمية الحمقاء جديرة بأن تشعل مشاعر المسلمين حين أبوا أن يكتبوا في المعاهدة «بسم الله الرحمن الرحيم» أو أن يُقرُّوا لرسول الله بلقب الرسالة، ومنعوهم عن الطواف بالكعبة وكانت إيذانًا بوقوع كارثةٍ محتملة لولا تثبيتُ الله عباده المؤمنين.

«فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ»، والسكينةُ هي الوقارُ والطمأنينة هكذا بفاء التعقيب التي تفيد سرعة نزول السكينة؛ لإطفاء جذوة تلك النار التي أوشكت على التوقد والاشتعال بسبب حماقة الكافرين وصدهم عن بيت الله الحرام.

والفاءُ عاطفةٌ على مُقدرٍ لابد منه يُفْهَمُ من السياق أي فَهَمَّ المسلمون أن يخالفوا كلامرسول الله (ﷺ) في الصلح ودخلوا من ذلك في أمرٍ موبقٍ أو يساور

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٨٨/١٦، ٢٨٩.

قلوبهم الشك فأنزل الله.[1]

وإسناد فعل الإنزال إلى الله تعالى يُشعر بأهمية تلك السكينة وعظمتها وكأنها نزلت من خزائن الرحمة ومستودعات الأسرار الإلهية واللطائف الربانية فكانت بردًا وسلامًا على قلوب المؤمنين الذين وصلوا إلى أعلى درجة في استفزاز المشاعر ومع ذلك التزموا بضبط النفس وكظم الغيظ إذعاناً لله ورسوله.

وفي إضافة السكينة إلى ضمير الله «سَكِينَتَهُۥ» تشريفٌ وإبرازٌ لأثرها الفعَّال في تثبيت النفوس.

والنبي (ﷺ) لم يزل ساكناً لكنه لشدة الموقف نزلت عليه السكينة ليثبت على موقفه، فتثبيته تثبيتٌ للمؤمنين، ولأنه (ﷺ) في مثل تلك المواقف الحامية لو ظهرت عليه أدنى أمارات الغضب، لانقض المسلمون على مكة بما فيها فأبادوا خضراءَها في ساعةٍ واحدة مهما كان الثمن.

وهنا تبدو قيمةُ إنزال السكينة على رسول الله (ﷺ)، ثم على المؤمنين الذين غلت في قلوبهم مراجلُ الغيظِ حنقًا على تعنُّت الكافرين، لاسيما وأنهم لا يملكون الاعتراض ورسول الله قد أقرهم على المهادنة والسلام.

وما أروع تلك المقابلة في هذا المشهد الرهيب بين: « إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ » وبين «فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ».

إنها مقابلةٌ تصور حمق الكافرين وطيشهم وجهلهم حتى بما ينفعهم وما يضرهم وعلى الجانب الآخر يبرز ضبط المسلمين بقيادة رسول الله (ﷺ) لنفوسهم

(١) إعراب القرآن وبيانه: ٩/٢٥٠.

وظهورهم بمظهر العاقل الوقور الذي لا يُستفزُّ من طيش الحمقى وبذاءة الجاهلين.

وحين ننظر إلى جزئيات تلك المقابلة نجد فيها من اللطائف المعنوية ما يجعلها في غاية البلاغة حيث أظهرت البون الشاسع بين الكافر والمؤمن، فباين بين الفاعلين إذ فاعل جعل هو الكفار، وفاعل أنزل هو الله تعالى، وبين المفعولين إذ تلك حميَّةٌ وهذه سكينةٌ، وبين الإضافتين أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى الله تعالى.(١)

ولم يكن جزاءُ المؤمنين مقصورًا على السكينة وإنما «**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ**» قالوا: هي لا إله إلا الله، وقال بعضهم: «بسم الله الرحمن الرحيم» التي رفض المشركون كتابتها. وقيل: هي الوفاءُ بالعهد والثبات عليه، والأول أولى، لأن كلمة التوحيد هي التي يُتقى بها الشرك بالله.(٢)

وإضافتها إلى «**ٱلتَّقْوَىٰ**» تشريفٌ لها وتعظيمٌ لقدرها وبيانٌ لكونها سبب التقوى، وسبب النجاة من الشرك والنار وفي الإلزام ما يُشعر بمدد الله للمؤمنين «**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ**» وإلهامهم الوقار والإذعان لرسول الله.

ولذلك مدحهم بقوله: «**وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**» أي أن الله اختارها لنبيه والمؤمنين لأنهم أهلٌ لها وأجدرُ بها من غيرهم من الكافرين الذين أبوا أن يكتب اسم الله فالأحقيَّةُ تشير إلى استحقاقهم لها عن جدارة بما قدموه في سبيل الله، والباءُ للملكية في « **بِهَا**» وهي تؤكد هذا المعنى، والأهلية تشير إلى أهليتهم لتحمل

(١) إعراب القرآن وبيانه: ٩/٢٥٠، ٢٥١.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٤/١٢٤.

تبعاتها.

يقال فلانٌ أهلٌ لكذا أي مستوجبٌ لهُ الواحدُ والجمعُ في ذلك سواء وتقول هو أهل ذاك، وأهلٌ لذاك[1]

وانظر إلى كلمة «**وَأَهْلَهَا**» بما تحمله من معاني الأُنس والمحبة بينهم وبين كلمة التوحيد وما تفيض عليهم من الأمن والأمان والسكينة والاطمئنان.

والواو في «**وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**» هي واوُ الحال أي ألزمهم كلمة التقوى حالة كونهم مستحقين لها عن جدارة، والتعبير بالماضي «**وَكَانُوٓاْ**» يدُل على تأصل الخيرية فيهم من قديم الزمان.

ثم ذُيلت الآيةُ بقوله سبحانه: «**وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا**» أي كان ولا يزال، لكن ماضوية الفعل تشير إلى قدم صفاته سبحانه وأزليتها أزلية لا أول لها، فهي تشير إلى إحاطة علمه سبحانه بكل الأشياء منذ الأزل ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وتقديم الجار والمجرور «**بِكُلِّ شَيۡءٍ**» على الخبر «**عَلِيمًا**» يشير إلى اختصاصه (ﷻ) بمطلق العلم لكل الأشياء دون سواه.

ومن خلال تحليلنا لآية السكينة هنا يمكن أن نخلص إلى ما يأتي:

* **أولًا:** إذا كانت الآيتان السابقتان من آيات السكينة في سورة الفتح قد جاءت كل منهما في سياق حافل بالرضا والمغفرة والجنان والنصر والفتح قبلًا وبعدًا، فإن آية السكينة هنا جاءت مقارنة بين حالين: حال المشركين الذين دفعتهم حمية الجاهلية إلى الصدِّ عن بيت الله الحرام، والحال الثانية هي حال المؤمنين الذين

(١) اللسان: أهل.

نزلت في قلوبهم السكينة فشعروا بدفئها واستقرت قلوبهم وعمُرت بالإيمان والإذعان، إنها مقارنةٌ تظهر الفارق بين الطيش والتهور والعقل والرزانة، وبين الحماقة والجهل والاندفاع الأعمى والتعصب الطائش والوقار والحكمة وضبط النفس وكظم الغيظ، وهو اختبارٌ حاسمٌ في تاريخ المسلمين ومن ثم انطلقوا من خلاله ينشرون دين الله في كل مكان.

* **ثانيًا:** شهدت هذه الآيةُ للمؤمنين بالصبر والأناة والروَّية والصدق والإيمان والتقوى والأهلية لكل ذلك «**وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا**» فكانت بذلك تاج عزٍ، ووسام شرفٍ لرسولِ الله (ﷺ) والمؤمنين.

الخاتمة

بعد جولتنا البلاغية حول آيات السكينة انتهينا إلى نتائج متعددة وهذه النتائج بعضها خاصٌّ بكل آيةٍ على حدة ، وقد ذكرت ذلك عقب كل سكينة كنتائج خاصةٍ بها، بما أغنى عن إعادته هنا حتى لا نقع في دائرة التكرار، وبعضها عامٌ في كل آيات السكينة ونذكر منه هنا ما يأتي:

* **أولاً:** وردت كلمة السكينة في الآيات الست معرفةً ومنكرةً وفي حالة تعريفها قد تعرف بالألف واللام، وقد تعرف بالإضافة إلى ضمير الله وذلك وفقًا لاختلاف المقامات.

فليست سكينة بني إسرائيل كسكينة هذه الأمة، ولذلك وردت منكرة «**فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**» ثم إنها في تابوت يمكن للأعداء أن يأخذوه في أي وقت بينما سكينةُ الأمة المحمدية كانت في قلوبهم التي لا يملك السيطرة عليها أو التحكم فيها إلا الله.

ولذا جاءت السكينةُ معها معرفةً إما بالألف واللام إذا كانت مع المؤمنين وحدهم دون رسول الله (ﷺ) « **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** »، «**لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** » والتعريف بأل يشير إلى كمالها وتمامها.

بينما تأتي معرفةً بالإضافة إلى ضمير الله مع الرسول (ﷺ) سواءٌ ذكر معه المؤمنون أم لا: « **ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ**

تَرَوْهَا»،«فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا»،

«فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ».

ووراء هذا التعريف بإضافتها إلى ضمير الله (ﷻ) بيانٌ لكونها سكينة خاصة برسول الله (ﷺ) وقد يحظى بها المؤمنون شريطة أن تنزل أولًا على رسول الله (ﷺ) وفي هذا من التكريم والتعظيم للنبي (ﷺ) ما فيه.

* **ثانيًا:** نلحظُ تعدي فعل الإنزال تارةً بـ «على» وأخرى بـ «في»، ولاشك أن حرف الاستعلاء أقوى وأدل على عموم الإنزال وإحاطة السكينة وشموليتها ومن ثم جاء في المقامات الشديدة المتناهية الشدة، في أعلى ساعات الكرب لتنهض بتثبيت الرسول والمؤمنين كما في حنين « ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ »، وكما في سكينة الغار «فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ »، وكما في سكينة صلح الحديبية: «فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ».

وكلها مقاماتٌ تضغطُ النفس وتملؤها بالضيق والحرج والقلق والخوف والانزعاج ولا يقوى حرف الظرفية «في» على أن يؤدي ما يؤديه حرف «الاستعلاء» من معاني الإحاطة والتمكن والرسوخ والشمول والكثرة وغيرها.

بينما في مقام سكينة الفتح أول السورة تأتي السكينة وقد تعدى معها فعل الإنزال بحرف الظرفية: «في» لأنهم في مقام اضطراب النفس وتململها لعدم إدراك ما غاب عنهم من ثمار هذا الصلح والذي حملهم على ذلك هو قوة إيمان وقوة ثقة تدعو إلى التعجل بجني ثمار هذا كله فكافأهم الله بإنزال السكينة التي طابت بها خواطرهم والدليل على ذلك: «ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم» وبذلك

يدركون أن ما تعجلوه لمَّا يحن وقته، ولهذا جاء قوله سبحانه: «ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكميًا» فناسب ذلك أن تستقر السكينة في قلوبهم حتى يذعنوا لأمر رسول الله عن رضا وقناعة تامة وتسليم من القلب وإذعانٍ لأمر الله.

* **ثالثًا:** جاءت آياتُ السكينة عمومًا لتفتح بابًا من أبواب الفرج والنصر المبين بداية من سكينة بني إسرائيل التي سلبت منهم بسلب التابوت فانكشفوا وانهزموا فلما رجعت إليهم حالفهم النصر ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ثم مرورًا بسكينة حنين حيث فر المسلمون لا يلوي أحدٌ على أحدٍ، وما بقي بجوار رسول الله سوى أعدادٍ قليلةٍ ثم سرعان ما اجتمعوا على صوتِ العباس (رضي الله عنه) واستعادوا أماكنهم فكان النصر حليفهم.

ثم سكينة الغار تلك التي جدد بها تثبيت نبيه (ﷺ) وثبَّتَ صاحبه في وقتٍ لو نظر أحد المشركين أسفل قدميه لرآهما ثم سرعان ما انفرجت الأزمة وزالت الكربة، ثم سكينة صلح الحديبية وبيعة الرضوان حيث سبقت بمخايل الاعتراك حين صدَّ المشركون المسلمين عن البيت الحرام وجرت بينهم المفاوضات على مضضٍ وتبرُّمٍ من المسلمين وقبلوا الصلح على كُرْهٍ منهم ثم تبين أن هذا هو الفتح الأعظم والنصر المبين فأثابهم الله ومن عليهم بغنائم خيبر ودخل الناس في دين الله أفواجًا وكفى الله المؤمنين القتال.

وهكذا تأتي السكينة في أشد حالات الكرب والضغط النفسي واشتداد الأزمة ثم يعقبها الفرج واليسر والنصر المبين.

ومن هنا وجدنا بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم (رحمهما الله) يتبرك بهذه الآيات

ويستنزل بقراءتها السكينة والدفء وسكون القلب من المخاوف والأهوال، فإذا كان القرآن كله سكينة فقد خصت هذه الآياتُ بتسكين النفوس وهذا محضُ اجتهادٍ وتجربة لم يثبتْ فيه دليلٌ صريح.

اللهم أنزل السكينة علينا، وأنزلها في قلوبنا وفي بيوتنا، وفي بلدنا واحفظنا من كل سوء، وأذهبْ خوفنا، وأبدلنا به أمنًا وأمانًا وسلامًا في الدنيا والآخرة. آمين

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين

المصادر والمراجع

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي – تحقيق: كمال بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه د/ محيي الدين الدرويش – دار الإرشاد – حمص – سوريا – الطبعة الرابعة ١٩٩٤م.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني تحقيق الدكتور/ عبد القادر حسين – مكتبة الآداب ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي تحقيق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – ١٤٢٠ هـ.

(٥) التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤م.

(٦) تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير – تحقيق: سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٧) تفسير الشيخ الشعراوي – المكتبة الشاملة – قائمة التفسير.

(٨) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

(٩) جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير أبي جعفر الطبري تحقيق: أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – ط أولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي تحقيق: أحمد البردوي وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة ط ثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

(١١) الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود بن عبد الرحيم صافي – دار الرشيد – دمشق – ط رابعة ١٤١٨هـ.

(١٢) الجملة الشرطية الواقعة في خواتيم الآيات القرآنية ومقاماتها البلاغية أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني – الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

(١٣) الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي تحقيق الدكتور/ فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(١٤) خصائص التراكيب – دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الخامسة – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

(١٥) الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري – دار البيان العربي – الطبعة السابعة عشر ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

(١٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي تحقيق: علي عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ.

(١٧) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووي تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح عويضة – دار المنار.

(١٨) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي – المكتبة الشاملة – قائمة التفاسير.

(١٩) السيرة النبوية لابن هشام – دار الفجر للتراث – الطبعة الثانية – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

(٢٠) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

(٢١) عقيدة أهل السنة والجماعة تأليف د/ أحمد فريد – مكتبة فيَّاض.

(٢٢) فتح القدير الجامع بين فَنَّيْ الرواية والدراية في علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني – مكتبة الرشد – الرياض – الطبعة السادسة – ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

(٢٣) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر تصنيف: أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري تحقيق: الدكتور/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة الثانية – ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م.

(٢٤) الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام الزمخشري تحقيق: يوسف الحمادي – مكتبة مصر.

(٢٥) لسان العرب لابن منظور – دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

(٢٦) لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري – المكتبة الشاملة – قائمة التفاسير.

(٢٧) المجاز العقلي بين عبد القاهر والمتأخرين أ.د/ الشحات محمد أبو ستيت.

(٢٨) مختار القاموس للطاهر أحمد الزَّواوي – الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ١٣٨٨هـ – ١٩٧٩م.

(٢٩) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبدُ وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية – تحقيق: محمد حامد الفقي – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

(٣٠) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ويسمى المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى للإمام البقاعي – مكتبة المعارف – الرياض ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م .

(٣١) المعجم الوجيز – إصدار مجمع اللغة العربية – القاهرة – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم – ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

(٣٢) مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣٣) مفتاح العلوم للسكاكي – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الثانية ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(٣٣) مقاييس اللغة لابن فارس – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٣٤) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضري – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

(٣٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

فهرس الموضوعات

م	الموضـــوع	الصفحة
١	المقدمة ..... :	١١٧
٢	التمهيد «السكينة في القرآن مواقعها ومقاماتها» ..... :	١٢٠
٣	المعنى اللغوي ..... :	١٢٠
٤	آيات السكينة على الترتيب ..... :	١٢٣
٥	**المبحث الأول:** السكينة في سورة البقرة ..... :	١٢٥
٦	المقصد العام لسورة البقرة ..... :	١٢٥
٧	علاقة آية السكينة بمقصد السورة ..... :	١٢٦
٨	مقام الآية وعلاقتها بما قبلها ..... :	١٢٧
٩	معاني بعض المفردات ..... :	١٢٨
١٠	التحليل البلاغي ..... :	١٣١
١١	**المبحث الثاني:** السكينة في سورة التوبة ..... :	١٤٤
١٢	المقصد العام لسورة التوبة ..... :	١٤٤
١٣	علاقة آيتي السكينة بالمقصد العام للسورة ..... :	١٤٥
١٤	العلاقة بين آيتي السكينة في سورة التوبة ..... :	١٤٧
١٥	السكينة الأولى في سورة التوبة ..... :	١٤٩
١٦	علاقة الآية بما قبلها ..... :	١٤٩

م	الموضـــــوع	الصفحة
١٧	سبب نزول الآيات ..... :	١٥٠
١٨	التحليل البلاغي للآية ..... :	١٥٢
١٩	السكينة الثانية في سورة التوبة ..... :	١٦٠
٢٠	سبب نزول الآية ..... :	١٦٠
٢١	علاقة الآية بما قبلها ..... :	١٦٠
٢٢	التحليل البلاغي للآية ..... :	١٦١
٢٣	**المبحث الثالث:** السكينة في سورة الفتح ..... :	١٧٣
٢٤	المقصد العام لسورة الفتح ..... :	١٧٣
٢٥	علاقة الآيات بالمقصد العام للسورة ..... :	١٧٤
٢٦	العلاقة بين آيات السكينة الثلاثة في سورة الفتح ..... :	١٧٥
٢٧	السكينة الأولى في سورة الفتح ..... :	١٧٧
٢٨	سبب النزول ..... :	١٧٧
٢٩	علاقة الآية بما قبلها ..... :	١٧٩
٣٠	التحليل البلاغي للآية ..... :	١٨٠
٣١	السكينة الثانية في سورة الفتح ..... :	١٨٥
٣٢	سبب النزول ..... :	١٨٥
٣٣	التحليل البلاغي للآية ..... :	١٨٦
٣٤	السكينة الثالثة في سورة الفتح ..... :	١٩٤

م	الموضـــوع	الصفحة
٣٥	سبب النزول ..... :	١٩٤
٣٦	التحليل البلاغي ..... :	١٩٥
٣٩	الخاتمة ..... :	٢٠٢
٤٠	ثبت المصادر والمراجع ..... :	٢٠٦
٤١	فهرس الموضوعات ..... :	٢١٠